4772

مصر القديمة



تأليف

جيمس بيكي

ترجمة

نجيب محفوظ



طبع بمطبعة المجلة الجديدة
شارع الملكة نازلي ١٤٩
بالقاهرة



مصر القديمة

جيمس بيكي

ترجمة

نجيب محفوظ



طبع بمطبعة المجلة الجديدة

شارع الملكة نازلى ١٤٩

بمصر



الفصل الأول

ارض ذات شهرة قديمة

لو سألنا سائل عن أعظم أمم الأرض حفولا بغرائب التاريخ لذكر سوادنا فلسطين ليس ذلك لوجود شيء غريب فيها — ولكن للحوادث العظيمة التي مثلت على أرضها . وفوق ذلك فقد كانت موطن نبينا

وبعد فلسطين تأتي مرتبة مصر وفيها تمت سلسلة القصص التي بدأت على أرض فلسطين والمذكورة في العهد القديم . ذلك العهد الذي يخبرنا عن يوسف الصبي الرقيق الذي صار نائب ملك مصر ، وعن موسى الطفل الاسرائيلي الذي صار أميراً في عائلة فرعون ثم كان بطل قصة خروج بني اسرائيل من أرض مصر ، وفضلا عن ذلك فمصر لها تاريخها الخاص بها ترويه آثارها الى اليوم ثم الى غد ... ما بين أمم الارض القديمة نظير له مالها من الملوك العظام والرجال العقلاء والجنود الشجعان . ولا يجد انسان في مملكة غيرها آثاراً ومخلفات لها ... ما للآثار المصرية من الروعة والجلال .

ان لنا بعض المباني القديمة وهي الحصون والكنائس التي يرجع وقت تشييدها الى خمسمائة أو ستمائة عام وربما أكثر . وكم يتكبد الناس من مشقات السفر ليشاهدوها في مصر تعد أمثال هذه المباني من الآثار الحديثة العهد ولا يكاد يحفل برؤيتها انسان ، ويمكن ... تتصور ذلك اذا عرفت أن المعابد العظيمة والمقابر الهائلة الموجودة الآن في مصر شيدت قبل أن يبدأ الكتاب المقدس بمئات السنين

ولأضرب لك مثلا بالهرم العظيم ... أعجوبة الدنيا فهو لم يشيد قبل أي بناء قائم الآن في أوربا بآلاف السنين فقط وانما شيد قبل أن يباع يوسف ويصير رقيقاً في منزل بوتيفار . وآلاف الاعوام قبل ان يسمع انسان بالأغريق والرومان كان يحكم مصر ملوك عظام يرسلون بجيوشهم لتغزو سوريا والسودان ويبعثون سفنهم لتستكشف البحار الجنوبية . وكان حكماء المصريين يضعون الكتب التي نقرأها الآن

وفى الوقت الذى كانت بريطانيا جزيرة مجهولة مسكونة بالمتوحشين والهمج كأنهم لتوحشهم وهمجيتهم سكان جزر البحار الجنوبية ، كانت مصر أمة متمدينة كثيرة المدن العظيمة عديدة المعابد والهياكل والقصور وكان سكانها من أعقل الرجال وأعظمهم علماً . وقد قصدت — فى هذا الكتاب الصغير — أن أروى لك نتفاً من تاريخ هذه الأمة العجيبة وأبين لك نوع الحياة التى كان يحياها الناس فى تلك الأيام الغابرة — قبل أن تبدأ الامم الأخرى فى الاستيقاظ وقبل أن يكون لها تاريخ

ولكن قبل أن أبدأ فى قصتى دعنى أكون لك فكرة عن جغرافية الأرض . ويجدر بى هنا أن ألاحظ أن أعظم الممالك خطراً فى التاريخ كانت من أصغرها مساحة ، فبريطانيا لاتعد مملكة واسعة رغماً عن تاريخها المجيد ، وفلسطين التى أسدت للعالم أياد لم تسدها أمة أخرى كان يطلق عليها « الارض الصغيرة » ثم تلى فلسطين فى هذه المرتبة بلاد الاغريق وماهى إلازاوية جبلية فى جنوب أوربا ومصر أيضاً أرض صغيرة

ربما خيل اليك وأنت تراها على الخريطة أنها كبيرة المساحة ولكن ينبغى أن تتذكر أن معظم الارض التى تقرأ عليها « مصر » صحراء أو تلال صخرية حيث لا يقدر لانسان على الحياة ، أما مصر الحقيقية فهى شريط رفيع على جانبى النيل ، وفى بعض الأحيان يكون امتداده ميل أو ميلين داخل الرمال التى يخترقها النيل ولا يزيد على ثلاثين ميلا فى أى جهة من النهر اذا استثنينا الجزء الشمالى منه المسمى الدلتا وقد شبه بعضهم وادى النيل بزنبق ذى ساق ملتوية وقد صدق فى تشبيهه ، فالنيل هو الساق الملتوية والدلتا هى الزهرة وتحت الزهرة مباشرة توجد برعمة صغيرة — وادى خصب هو الفيوم . وفى عهد مضى قبل أن يبدأ تاريخ مصر نفسه لم يكن للزنبق زهرة

فقد كان النيل أوسع بكثير مما هو عليه الآن . وكان يصب فى البحر بقرب القاهرة — العاصمة الحديثة لمصر — ولم تكن الارض إلا ذلك الوادى الضيق المحدود من الجانبين بتلال الصحراء

ولكن على مرور الأيام قرناً بعد قرن حفر النيل مجراه فزاد عمقه وغارت المياه وانخفضت تبعاً لذلك ، تاركة أرض خصبة بين المجرى الجديد والتلال ، أما الطين

الذى حملته المياه فقد كان يرسب عند المصب حتى كون الدلتا كما هى الآن تقريباً
كانت مصر كذلك قبل أن يبدأ التاريخ . فلما ابتدأ التاريخ كانت الدلتا أرض مستنقعات لأنها كانت حديثة التكوين فى مكان البحر قبل أن يطرد النيل بطينه مياهه
• وكان سكان الوادى يحتقرون الناس الذين يعيشون بين المستنقعات وحتى بعد أن تم تكوين الدلتا لم تكن مساحة المملكة كلها لتعادل مساحة ويلز مرتين ومع ذلك كان يعمرها عدد عظيم من السكان — عظيم بالنسبة لمساحتها — وكان يبلغ على اكثر تقدير — قدر سكان لندن مرتين

قال مؤرخ أغريقى قديم « مصر هبة النيل » وهذا صحيح .

لقد رأينا كيف أن النيل كونها باختراقه طريقاً بين التلال وبتكوينه الدلتا ، وهو لم يخلقها فقط بل هو يحفظ لها حياة مستديمة

ولقد كانت مصر — كما هى الآن — من أخصب البلدان أرضاً ، ومن ميزاتها أن ينمو بها أغلب أنواع المزروعات فهى تنتج أجود أنواع القمح والخضراوات والقطن

ولما كانت روما عاصمة العالم كانت تستورد ماتحتاجه من الحبوب من مصر بواسطة سفن الاسكندرية الشهيرة ، وأنت تذكر مايروى الانجيل عن أخوة يوسف الذين أتوا مصر من فلسطين التى اجتاحتها المجاعة — ليشتروا من قمح مصر

ومع هذه الخصوبة فالمطر غير معروف فى مصر ، نعم قد تمطر السماء فى أحايين قصيرة من عام طويل لا تسقط فيه من السماء قطرة

كيف يتيسر لأرض لا تمطرها السماء ان ينمو بها أجود أنواع النباتات ؟ سر ذلك النيل : ففى كل عام اذا سقطت المياه فى أواسط أفريقيا وعلى جبال الحبشة ازداد النيل ارتفاعا ، وحملت الامواج اليه طيناً كثيراً ، وفى هذه الحال تغمر المياه الأراضى ثم تتركها بعد أن يرسب فيها الطين ، ولما كانت المياه لاتصل الى الاراضى المرتفعة فانه يوصل بها ترع ثم تقسم هذه الترع الى قنوات صغيرة حتى تتخلل جميع الاراضى وتسير فيها المياه كما يسير الدم فى الأوردة والشرايين وقد نتج عن هذا النظام أن زادت خصوبة الارض وارتوت منها جميع الجهات فعوضت بذلك مايمكن أن تكسبه الامطار من المياه فى الاراضى التى تسقط فيها

ولولا نهر النيل لكانت مصر قطعة من الصحراء ليس فيها مايميزها عن بقية أجزائها ، وليس من شيء فى حياة مصر يسترعى الانتباه إلا تاريخها العظيم ، ذلك التاريخ القديم الذى وسم القطر بميسم سحرى جعلها مصدر جاذبية لجميع الناس . وكذلك آثارها المجيدة ، ولهذا لاتوجد أمة غير مصر تشاهد فيها السكان الاصليين ومظاهر الحضارة القديمة كما كانت فى بدء تاريخها

هنا تستطيع ان تشاهد معابد الآلهة القديمة وهياكلها والقبور الهائلة التى لم ترها عين انسان ، بل تشاهد السيوف والحراب والخوذ التى كان يحارب بها الملوك والجند الشجعان — لأجل وطنهم — قبل أن يشترك داود فى حروب بنى اسرائيل بآلاف السنين

ومن الصور المختلفة على جدران المعابد والقبور أمكننا أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يعيشون فى تلك الايام الماضية ، وكيف كانت تبنى بيوتهم وكيف كانوا يكسبون ويعملون ، وكيف يلهون ويقصفون — وكيف يعبرون عن هم دفين فى وقت الاسى والحزن ، ثم كيف يعبدون آلهتهم ، تراهم فى هذه الصور وهم يقومون بهذه الاعمال كلها ، بل تستطيع ان تعرف ماكان يغرم به الاطفال من أنواع اللهو واللعب ، وتعرف اللعب والعرائس الجميلة التى كانوا يلعبون بها ، وتستطيع ان تقرأ القصص التى كانت ترويها الامهات والمربيات لأطفالهن

كل هذا مما يجعل لمصر جاذبية خاصة وسحر خيالى بديع . وما قصدت اليه هنا هو أن أصور لك بعض نواحى هذه الحياة لتستطيع أن تكون لنفسك صورة فى مخيلتك عن الحياة فى هذه الايام

الفصل الثانى

يوم فى طيبه

لو أراد غريب ان يكون لنفسه فكرة صحيحة على حالتنا الحاضرة والدرجة التى بلغها من الحضارة والرقى فأول مكان يخطر له ان يقصده ليشاهده هو لندن لأنها عاصمة المملكة ومدينتها العظمى

وعلى هذا القياس لو أردنا أن نستقى أخباراً صحيحة عن الحياة المصرية القديمة وكيفية طرق المعيشة فيها وأحوال الناس ووسائل معيشتهم ينبغى لنا ان نذهب الى عاصمتها ثم نمعن النظر فيما عساه ان يقع تحت بصرنا

وعلى ذلك أفرض أننا لم نعد من سكان بريطانيا واننا لسنا من أبناء القرن العشرين بل أننا رجعنا الى الماضى البعيد وأننا من أحياء سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد . أى قبل أيام المسيح وقبل عهد موسى أيضاً

* * *

وصلنا من « صور » فى سفينة فرعونية محملة بأنواع مختلفة من الملابس والاقمشة وأوعية من برنز ونحاس على أمل بيعها فى أسواق طيبة أعظم مدينة فى مصر

لقد رست السفينة على شاطىء البحر على مقربة من مصب النيل بعد ان كنا ها لكين — لامحالة — فى عاصفة هائلة لم ننج منها إلا بعد جهد جهيد

وكان معنا على السفينة دليل مصرى وقد وقف على منحنى السفينة يصيح بأعلى صوته ليعين الاتجاه الذى يجب ان تسير فيه السفينة — وكان مديرا المجدافين الكبيرين الملصقين بجانبى السفينة عند مؤخرها يوجهان السفينة تبعاً لتعاليمه

وكانت الريح الشمالية تهب بقوة وعنف وتدفع السفينة بقوة حتى سارت بسرعة رغما من أمواج النيل الثقيلة التى تسير فى اتجاه مضاد لنا تبعاً لانحدار النهر صوب البحر

ولذلك فقد ترك العمال المجاديف بعد ان انتهكت قواهم وسرنا جهة الجنوب بعد ان أطلقنا الشراع فى الهواء . وكنا نرى على جانبى النيل أراضٍ واسعة بعضها

سهل لين تنمو به نباتات مختلفة والبعض تلأشتفة المستنقعات التى تنمو على حافاتها نباتات شيطانية

وكلما تقدمت بنا السفينة صوب الجنوب كانت السهول الزراعية تضيق شيئاً فشيئا وكنا قد شارفنا على مؤخر الدلتا ، بل أخذنا نسير فى وادى النيل

ولقد مررنا على مدينة عظيمة تناطح معابدها العالية السماء الزرقاء وعلى ساريات المعابد تتموج الرايات ، والمسلات منتثرة هنا وهناك وقد أخبرنا دليلنا بأن هذه المدينة هى ممفيس — وهى من أقدم مدن مصر وكانت عاصمتها يوما من الأيام . وعلى مقربة من ممفيس شاهدنا الاهرامات الثلاثة تظهر كأنها جبال عالية ، وقد علمنا من دليلنا بأن هذه الكتل الحجرية التى لا مثل لها فى الضخامة والعظمة هى مقابر الملوك الاقدمين ، وان مايحيط بها من أهرامات أصغر حجما وأقل خطراً هى مقابر بعض أمراء وعظماء الدولة

ولما لم تكن ممفيس هى الغرض من رحلتنا فقد واصلنا السير صوب الجنوب . وانقضت عدة أيام والسفينة تمخر بنا عباب الماء دون انقطاع

ولقد مررنا بمدن كثيرة وقد استوقف نظرنا من بينها مدينة متهدمة خربة لم نر من آثارها إلا أكوام الحجارة والتراب ولقد قال لنا الدليل ان تلك الخرائب كانت مدينة من أجمل مدن القطر بل وكانت عاصمة لأحد الملوك . غير أنه آمن بآلهة جديدة وحاول ان ينشر ديانته الحديثة فعمد الى الآلهة القديمة وهدمها وخرب معابدها ليمحو آثارها ويبعد عن الاذهان اسمها

وأخيراً — بعد سفر طويل — لاحت لنا عن بعد أبنية عظيمة على شاطىء النيل ، ثم تبين لنا أنها مدينة عظيمة لم نر لها نظيراً فيما رأيناه من مدن الأرض

ولما اقتربت السفينة من المدينة ميزنا أمامنا مدينتين فى الواقع ، فعلى الشاطىء الشرقى للنيل تقوم مدينة الاحياء بأسوارها المرتفعة وأبراجها العالية ومعابدها العظيمة وصفوف منازلها التى لا يرى لها أول ولا آخر . من قصور النبلاء الى أكواخ الفقراء

أما على الشاطىء الغربى فتقع مدينة الاموات ولم يكن بها قصور ولا شوارع وكان السكون يخيم عليها والهدوء يشملها ولا يستطيع الناظر اليها الا ان يشعر بالخشوع والحزن والكآبة

ولقد رأينا فيها تلالا ممتدة بها فتحات كثيرة متراصة تظهر كخلايا النحل ، هذه هي قبور طيبة حيث يرقد أمواتها من سنين لاعداد لها

وفى المكان الفسيح الممتد مابين النيل والتلال الغربية توجد هيا كل متتابعة يخيل للناظر ان ليس لها حصر ، وبعض هذه الهيا كل متين الجدران سليم البنيان عظيم الحجم والبعض الآخر واهى الاساس متهدم الجدران لم يبق منه الا أثر ضئيل

وكانت اذا سقطت أشعة الشمس عليها انعكست مرسلة فى الجو اسلاكا من ذهب وقرمز تبهر العين

أخذت سفينتنا تقترب من الشاطىء لترسو هنالك . وبذلك تكون قد انتهت رحلتنا

ولقد أتى نحوها فى الحال ضباط الجمرك المصرى فى قوارب ليفتشوا امتعتنا وليجمعوا منا مايجب دفعه عليها ، ولقد جلسنا نراقبهم بجذل وسرور لأن مظهرهم كان غريباً عنا كل الغرابة ، فهم يختلفون عن ملاحينا ذوى اللحى المرسلة والمعاطف ذات الألوان الكثيرة اذ يحلق المصريون لحاهم وشعورهم وبعضهم يضع على رأسه شعراً مستعارا ويطلقونه مسترسلا حتى الاعناق ولا ريب أنهم يتكبدون تعباً جما فى تنسيقه وتمشيطه ، وسواهم يرتدى ملابس من الكتان قصيرة « أشبه برداء الجند السكسونيين »

أما رئيس الضباط فيرتدى معطفاً أبيض جميلا فوق ردائه « السكسونى » وحول وسطه منطقة ذهبية لها أهداب طويلة تكاد تلامس ركبتيه وفى يده اليمنى عصا طويلة لايتأخر عن الهاب ظهر أحد أتباعه بها إذا قصر فى تأدية واجباته

وبعد مناقشة بيننا وبينه أعطيناه المبلغ المطلوب وصرنا بذلك أحرارا فى ان نتوجه الى أى ناحية من أنحاء المدينة

ولم نتعمق داخل المدينة مسافة قصيرة حتى تجلى لنا ما كانت عليه من العظمة . ومما وصل الى آذاننا ، علمنا أنها فى حركة دائمة تدل على الحياة والنشاط

ولكننا سمعنا ضوضاء داوية آتية من الشارع الضيق الذى يساير النيل ورأينا بعد برهة جماعة من العمال تصخب وتصرخ وتتدافع بعنف فى شكل مظاهرة

ويتقدمهم شخص ظهر لنا من حالته التى كان يرثى لها أنه يجرى فاراً من العمال وانه يخشى على نفسه منهم ان يصيدوه بسوء. وكان العمال فى حالة زرية عرايا الاجسام الا عما يستر عوراتهم ، والظاهر ان الجوع عضهم فثاروا وأضربوا عن عملهم ولم يجدوا أمامهم من يصبون عليه جام غضبهم الا هذا الرجل العجوز الذى يجرى أمامهم محاولا النجاة بحياته

واتجه الرجل العجوز نحو قصر جميل تحيط به حديقة غناء ذات أسوار ضخمة ولما يئس العمال من اللحاق به رموه بالحجارة فأصابه بعضها وتفجرت الدماء من عدة أجزاء من جسمه ، ولكنه رغما عن ذلك جرى بقوة نحو باب القصر وهمس فى أذن « البواب » بضع كلمات — ثم دخل الى الحديقة ، ثم أغلق الباب فى وجه المطاردين الذين اضطروا للوقوف وقد أخذ الغضب منهم كل مأخذ وأخذوا يهزون قبضاتهم فى الهواء مهددين مزمجرين

وبعد فوات مدة قصيرة فتح الباب وخرج منه رجل جميل الطلعة بادى النعمة والجاه ، يتبعه ستة من العبيد مدججين بالسلاح

هذا الرجل هو الأمير باسر الذى يهيمن على مصلحة العمل فى حكومة طيبة. أما العمال فكانوا بنائين يقومون بعمل فوض اليهم فى مقبرة طيبة

سال الامير العمال عما جعلهم يحدثون هذا الشغب ويطاردون سكرتيره

وقد رد كل واحد منهم بما شاء على هذا السؤال فحدثت ضجة عظيمة ولم يفهم الامير كلمة واحدة ، فأنابوا عنهم واحداً يتكلم بلسانهم وقد ابتدأ الرجل الكلام فى تلعثم واضطراب ولكن لم يلبث ان زال عنه ما الجم لسانه من الخوف وبلغ الامير الشكوى

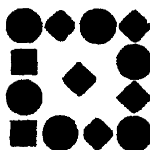
قال انه وزملاءه يشتغلون منذ أسابيع ولم يأخذوا أجراً مقابل اتعابهم ، حتى القمح والزيت اللذان هما حق لكل عامل من عمال الحكومة

وعليه فقد قصدوا سيدهم يضرعون اليه ان يصرف لهم جرايتهم ، فان كانت المخازن خاوية فليرفع شكواهم لفرعون . « إننا مسوقون الى هنا بدافع الجوع والظمأ ، ولا نملك ملابس ولا زيت ولا طعام فاكتب لفرعون يرسل لنا ما تقوم به حياتنا »

ولما أتم الرجل كلامه وافق الجمع على أقواله وتماوجوا هنا وهنالك فى حالة وعيد وتهديد . وهنا وعدهم الامير بأنه سوف يرسل اليهم خمسين كيساً من القمح فى مكان عملهم وطلب منهم ان يؤوبوا من حيث أتوا وان يستأنفوا عملهم ويكفوا عن مطاردة سكرتيره ، وإلا فهو لا يستطيع أن يصنع لهم شيئا

وترددوا مدة لأنهم منوا قبل ذلك بالوعود التى لم يوف واحد منها ، ولكن لما كانوا ينقصهم زعيم ماهر ليقود العصيان ولما لم يكن معهم سلاح يدافعون به عن أنفسهم وقد كانت رماح العبيد تظهر مخيفة فى أيديهم ، فقد آبوا من حيث أتوا متذمرين ساخطين ، أما الامير فقد دخل القصر وهو يهز كتفيه ، وأما ارسال الاكياس أو عدم ارسالها . فهذا شىء آخر

فالاضراب — كما نرى — لم يكن مجهولا فى هذه تلك الايام



الفصل الثالث

يوم فى طيبة

بعد أن مر أمامنا منظر إضراب العمال وعودتهم إلى عملهم ثانيا — واصلنا سيرنا إلى قلب المدينة ؛ ولقد لاحظنا أن شوارعها ضيقة ؛ وتتقابل المنازل من فوق الرؤوس هنا وهنالك ؛ فكان يحدث اننا نسير تحت منازل متصلة كمن يسير فى سرداب مظلم وبعض المنازل عظيم الاتساع شاهق الارتفاع ولكن مظاهرها الخارجية على العموم غير جميلة

فقد يكون داخل المنزل جميلا فاخراً تكتنفه الحدائق الغناء الحافلة بجميع أنواع الازهار والاشجار ، وفى وسطه بركة بديعة وغرفه مؤثثة بأفخر الرياش مزينة بأجمل الستائر ولكن أسواره الخارجية سوداء ولها باب ضخم عظيم

ثم مررنا بأحياء مكدسة بالاكواخ الحقيرة مزدحمة بالمارين حتى أنه صعب على المار أن يشق لنفسه طريقاً ، هذه هى احياء العمال ولا تذهب فى أى جهة منها والا وتشعر بالحرارة المرتفعة وتشم الروائح الكريهة التى لا تطاق ، وكم عجبت كيف يستطيع انسان ان يعيش فى أمثال هذه الاماكن

وبعد أن قطعنا شوطاً كبيراً انتهى بنا المسير إلى ميدان فسيح — وهو سوق من أسواق المدينة — والعمل هنالك فى حركة دائبة ، والحوانيت عبارة عن خيم أو مظلات متوسطة الاتساع ومفتوحة من الجهة الامامية ، وترى البضائع موضوعة فى الداخل والخارج بينما يجلس صاحب الحانوت القرفصاء متأهبا للبيع والحساب ويلفت اليه الأنظار بصوته العالى وهو يشيد بجودة بضاعته ورخص ثمنها

وكأن الناس وهم من جميع الطبقات والاجناس يذهبون ويجيئون دون أن ينقطع لهم تيار فان أمثال هذه الاسواق كانت تجذب اليها الناس من جميع أنحاء القطر وأصقاع العالم القديم

فأهل المدينة يأتون ليشتروا حوائج منزلية وليتبادلوا الاخبار المختلفة والفلاحون يبادلون ما يحملونه من قطعان الحقول ومحصولاتها بالبضائع التي لا توجد إلا فى المدن ، ويجىء كثير من السيدات النبيلات يتبعهن الخدم لينتقو من بين المعروضات ما يروقهن من الجلابيب المزخرفة والصنادل الجميلة

وكنا نرى غير ذلك كثيرا من الغرباء ، وقد رأينا حيثيا من قادش وحوله مظهر خاص به يميزه عما سواه ، يضع على رأسه غطاء عالى القمة وبشرته صفراء وحذاؤه ثقيل . ويسير ملتفتاً حواليه وعيناه تبرقان بحب الاستطلاع والجشع كأنه يعتقد أن طيبة خير مدينة للنهب والسلب ، وشاهدنا كاهنا من الطبقة العليا يسير برأسه المحلوق لافا حول كتفيه جلد نمر ممسكا بيده درجا من درج البردى ويتبعه سرديني يسير متغطرسا وقد انعكست أشعة الشمس على قرنى خوذته وتمايل السيف المعلق بجانبه ، وليبى من رماة القوس يتبعه بقوسه ويلفت الانظار اليه بريشتيه المعلقتين فى غطاء رأسه

وكان الجميع منهمكين فى البيع والشراء والمبادلة . والنقود التى نستعملها الآن كانت مجهولة فى تلك الأيام ولهذا كانت المبادلة أساس المعاملة التجارية

وكثيرا ما كانت المناقشة تحتد والاصوات تعلو إذا ما اختلف على عدد السمكات — مثلا — التى يصح أن تبادل بفراش أو على عدد أكياس البصل التى تقدم فى مقابل مقعد فخم . وهكذا . ولما كان المصرى — بطبعه — ميالا للمساومة ، ماهرا فيها فقد كانت ضوضاء الكلام لا تنخفض أبدا ، وكثيرا ما كان يخرج بعض التجار عن العادة المتبعة فى المبادلة فيبادلون بالخواتم النحاسية والفضية والذهبية بدلا من البضائع . فاذا أراد فلاح أن يبيع ثورا يقدم له التاجر نظيره تسعين خاتما نحاسيا ، ولكن الفلاح يشكو قلة الثمن ويصرح بأن مثل هذه المبادلة تعد سرقة وبعد مشادة طويلة يرفع التاجر عدد الخواتم الى أحد عشر فوق المائة فيتم الاتفاق بذلك . ولكى يتحقق الفلاح بأنه لم يخدع يعمد لوزن الخواتم ويأتى بميزان كبير ويضع الخواتم فى كفة ويضع فى الكفة الاخرى أثقالا « على شكل رؤوس الثيران » ولا يهدأ ثائره الا إذا انخفضت كفة الخواتم ، ولكن رغم حذره وشدة احتراسه فانه لا يجمع الخواتم فى كيسها

ويسير فى حال سبيله حتى يكون التاجر قد استرجع كثيرا من الخواتم الى محلها الاول

وبعد ذلك ضربنا خيمتنا وعرضنا فيها ما حملنا من نفائس البضائع ، وكانت أقمشة ذات ألوان زاهية ، وكان جارنا صائغاً وهو دائما منهمكا فى عمله قابضا على منفاخه وأمامه فرنه الصغير ، وكان يلحم سواراً لامرأة تنتظره بصبر وأناة

وفى احدى نواحى السوق يقع منزل كبير ولم تكن به بضائع ولا معروضات وكان الناس يدخلونه زرافات زرافات - وكان كثير من العمال يدخلونه ثم يغيبون برهة ويخرجون وهم يمسحون أفواههم ويترنحون فى ضعف وانحلال

ولقد رأيت شابا يترنح يتجه نحو باب المنزل وكان بجانبي رجلان فلما رآه أحدهما قال لزميله « أن بنتوير ذاهب مرة أخرى ليمضى يوما فى سرور سوف تكون نهاية هذا الشاب سيئة »

وخرج بعد وقت قصير بنتوير وكانت قدماه لا تستطيعان حمله وبعد أن تمايل ذات اليمين وذات اليسار سقط على الأرض لا حراك به كمن فقد الحياة ، وترك على هذه الحالة المخزية والمارة يضحكون منه دون أن يكترثوا لشأنه ، وحدث أن مر به رجل وابنه ولما تأمله قال لابنه « انظر إلى هذا الشاب يابنى واتعظ بمصيره وعاهد نفسك على ألا تشرب خمرا فانها تتلف صحتك وتلوث نفسك بالأوحال ، فان صرعت يسخر منك الناس ولا يمد لك أحد يد المعونة . حتى رفقاؤك فانهم يتركونك ويذهبون ليشربوا ، ولا ترى إلا راقدا فى الطين وغائبا عن الوجود »

ولكن أمثال هذه النصائح كانت تذهب هباء لأن المصرى ميال بطبعه لقضاء « اليوم الطيب » كما كان يدعو اليوم الذى يمضيه فى الحان ، حتى السيدات الجميلات كن يشربن حتى يتعذر عليهن المشى ويرفعز وهن فى حالة اعياء الى منازلهن

مضينا فى سيرنا ببطء وتمهل حتى اقتربنا من الحى المقدس فى المدينة حيث لاحت لانظارنا المعابد العالية والمسلات العظيمة من فوق أسطح المنازل

وقد رأينا عن بعد جماعات من الناس مقبلة نحونا فى مظاهرة كبيرة وسمعنا أصوات الطبول والناى . وقد سألنا بعض المارين مستفسرين عن هذا الموكب وأخبرونا بأنه احتفال دينى . وأن هذه الجماعة تحمل صورة صغيرة للرب آمون اله

طيبة العظيم ، وانهم يتأهبون لحفلة دينية كبرى سيكون على رأسها فرعون نفسه

ووقفنا ملتصقين بأحد أبواب المنازل من شدة الزحام وراقبنا الاحتفال وهو يمر أمامنا ، فمر الموسيقيون والمغنون وأخذت النساء يرقصن ويحركن فى أيديهن قطعا من المعدن ، وشاهدنا فى وسط الجماعات ستة من الرجال كانوا مركز المظاهرة الدينية واليهم كانت تتجه الانظار

كانوا طوالا نحافا ، حادى النظرات ، محلوقى الرؤوس ملفوفى الاجسام فى أثواب بيضاء من الكتان المصرى الجميل . وكانوا يحملون على أكتافهم ـ بواسطة قضبان ـ انموذجا لقارب نيلى مقام فى وسطه تمثال صغير ، وكان هذا التمثال مغطى بستر لم يظهر منه شيء كأنهم أرادوا أن يخفوا الاله عن عيون المتطفلين

وكان أمام الباب الذى كنا مستندين عليه عمود خشبي مثبت فى وسط الشارع ، فلما وصل الرجال الى هذه البقعة وضعوا القارب الصغير على قمته ، وكان مع اثنين منهما بخور لحرقاه وتصاعد دخانه حول القارب والتمثال

ثم رفع كاهن صوته وعدد مناقب الرب العظيم الذى خلق كل شيء وصان كل شيء ، وعلى أثر ذلك تقدم بعض الواقفين وقدموا للرب أزهاراً أو فواكه ومأكولات أخرى

بعد ذلك أتت الدقيقة الرهيبة ، وتقدم كاهن من التمثال وأزاح الستر الذى يخفيه فى وسط سكون مخيم كتمت فيه الانفاس ، ورأينا أمامنا ـ صورة خشبية لا يزيد ارتفاعها عن ثمانى عشرة بوصة ، مزينة بالاوسمة ، وملونة بالاخضر والاسود

ولقد كان لظهور الصورة من التأثير على الطيبيين « وهى أقدس شيء فى العالم فى نظرهم » ما جعل السنتهم تلهج بآيات الاعجاب والعبادة

اسدل الستر بعد ذلك على التمثال وواصل الموكب سيره وتبعته الجموع الغفيرة ، فعادت الشوارع إلى ما كانت عليه من السكينة والهدوء

وكان علينا إن أردنا مشاهدة فرعون فى أثناء مروره إلى معبد آمون ـ أن نسرع بتناول الغداء وعلى ذلك رجعنا الى شاطىء النيل مخترقين الشوارع المضللة التى قطعنا فى سيرنا الأول وذهبنا توا الى سفينتنا لتناول طعام الغداء

الفصل الرابع

فرعون فى القصر

أزف الوقت الذى قرر أن يذهب فيه الملك الى المعبد العظيم بالكرنك ليقدم أضحية . لقد ذهبنا الى الطريق الذى يوصل مابين القصر وطريق المعبد . لنشهد فرعون وموكبه الملوكى

وأحب الآن أن أحدثك عن فرعون والحياة التى يحياها

ليست كلمة « فرعون » اسمه الحقيقى وليست هى لقبه الرسمى ، وكل مافى الامر أنها لفظ كانوا يدلون به على أحد العظماء الذين يتهيبون من ذكر أسمائهم ، كما كان يذكر التركى « الباب العالى » اذا عنى السلطان وحكومته وعلى هذا القياس كان المصريون يطلقون لفظة «فرعون» على ملكهم العظيم ومعناها اللغوى « البيت العظيم »

وقد كان ملك مصر عظيما حقاً ، وكان الناس لذلك ينظرون اليه كما لو كان أكثر من انسان عادى ، وكان هو نفسه يعتقد أن ذلك صحيح لاريب فيه . نعم لقد كان المصريون يعبدون آلهة متعددة ولكن أقرب هذه الأرباب كلها الى نفوسهم وأحوزها لاحترامهم وعبادتهم كان ملكهم

لقد حكمت الملوك مصر منذ أزمان غابرة ، ولقد كانوا دائماً يعتقدون أن ملوكهم آلهة كامنة فى لحم بشرى وكان الملك يطلق على نفسه « ابن الشمس » وعلى جدران المعابد ترى صورة الملك وهو صغير جالساً على فخذ الرب الذى يدلله كما يدلل الأب ابنه

وتبعاً لهذا الاعتقاد فهم كانوا يبذلون فى سبيله كل عزيز لديهم ويقدمون له أنواع الضحايا فاذا صعد الى السماء لاحقا باخوته الآلهة شيدوا له معبداً عظيما لاحياء ذكره على الأرض . ويخصص لهذا المعبد جماعة من الكهنة يسلخون حياتهم فى عبادته والتغنى بمناقبه

ولكن يوجد فارق واحد بين فرعون وبقية الآلهة ، فالارباب أمثال آمون فى

طيبة ، وبتاح فى ممفيس وغيرها تدعى « الآلهة العظام » ، أما لقب فرعون فيختلف عن ذلك . ويدعى « الآله الطيب »

وفى الوقت الذى أتحدث عنه كان « الاله الطيب » رمسيس الثانى ، ولا ريب أن هذا جزء صغير من اسمه الكامل ، لأنه مثل جميع الفراعنة له قائمة من الاسماء تملأ صفحة

ولم تكن رعيته فى طيبة قد رأته من زمن طويل ، لأنه كان غائباً فى سوريا يحاول حل عدة مشكلات سياسية ، فلما رجع لمصر انهمك فى بناء عاصمة جديدة فى تنيس أو « زون » كما يدعوها اليهود . وهى واقعة بين الدلتا والحدود الشرقية وكان يمضى معظم وقته فيها

وجميع الذين شاهدوا العاصمة الجديدة يثنون عليها أجمل ثناء ويشيدون بعظمها اشادة بليغة ويسهبون فى وصف معبدها الجديد وتمثال فرعون المقام أمامه البالغ ارتفاعه تسعين قدما ، ولكن حتى فى ذلك الوقت كانت طيبة لاتزال مركز حياة الشعب التجارية

وكان سبب قدوم الملك الى طيبة هو توقعه قيام حرب بينه وبين الحيثيين ، وقد أتى ليستشير أخاه الرب آمون ، ليجمع جيشه

وكان القصر الملكى فى حركة غير اعتيادية فالرسل ذاهبون آئبون والقواد والمستشارون يدخلون وبأيديهم التقارير والاوامر

ولم يكن القصر الملكى من الفخامة والمتانة بحيث يستطيع الخلود على مر الايام ، وقد كان المصريون يشيدون القبور والمعابد على ان تخلد أمد الدهر أما القصور فقد كانوا يبنونها لأجل معلوم وقد كانت العادة ان الملك الجديد لايقيم فى قصر أبيه وانما يأخذ فى بنيان قصر جديد يوافق مزاجه وذوقه ، فلم يكن فرعون يشيد قصره إلا ليمضى فيه حياته القصيرة وكان عالماً بأن ابنه ان تولى الملك يوما سوف يبنى قصراً جديداً ، وعليه فقد كانت القصور تبنى من مواد بسيطة وتحاط بأسوار متينة ضخمة ، لانه وان كان فرعون رباً معبوداً إلا ان رعيته قد تمادى فى أشد حالات العصيان والتمرد خطراً ولم تكن المكايد ضد الملوك مجهولة

فى ذلك الوقت فقد حدث لأحد الفراعنة الماضين ان هوجم وهو على فراش القيلولة ، واضطر الى الدفاع عن نفسه بمفرده وبيديه ضد جماعة قويه من المتآمرين

ومن ذلك الوقت رأى فرعون أن يعتمد على أسواره الضخمة وعلى حراسة السردانيين الاقوياء وألا يجعل جل اعتماده فى الدفاع عن نفسه موقوفا على الوهيته وعبادة الناس له . ويحيط هذا السور بحديقة غناء حافلة بأنواع الزهور والرياحين وفى وسطها بحيرة صناعية محاطة بأنواع الاشجار والشجيرات المختلفة

وفى نهاية الحديقة يوجد باب ضخم يؤدى الى بهو الاجتماع العظيم وهو مزين بالالوان ومقام سقفه على أعمدة مزخرفة على شكل سيقان اللوتس وعلى كل جانب من جانبى البهو توجد غرفة كبيرة ، وخلف بهو الاجتماع توجـــد غرفتان للاستقبال وهما أفخم غرفتين فى مصر كلها وخلفهما تأتى حجرات نوم أهل القصر العديدين

ولرمسيس زوجات كثيرات وله تبعاً لذلك جيش من الاولاد والبنات . وغرفة نوم الملك منعزلة فى جهة وحدها ومكللة بالزهور والرياحين

وكان « ابن الشمس » يمضى يوما مملوءاً بالاعمال المختلفة فكان عليه أن يطالع كثيراً من الرسائل والتقارير ليصدر حكمه فيها ، وكان الامراء السوريون قد أرسلوا للملك تقريراتهم عن تقدم جيوش الحيثيين وطلبوا معونة الملك لدفع الخطر عن انحاء ملكه الواسع

وقد عقد الملك العزم على ان يصدر تصريحاً بكل ذلك ومن ثم يتبادل المشورة مع قواد ونبلاء المملكة . وكان فى احدى ، نواحى البهو شرفة فخمة كان يظهر فيها الملك لشعبه ، وكانت وجهتها مرصعة بالجواهر والاحجار الـكريمة . وكانت العادة ان الملكة وبعض الاميرات والامراء يقفون بجانب الملك عنـد ظهوره للشعب

فتحت أبواب البهو وتسرب اليـــه جماعات النبلاء وحكام الاقاليم وقواد الجيش الـكبار ومديرو الادارة ، وتزاحموا جميعاً ليقدموا فروض الطاعة لسيدهم ومولاهم . وفى لحظة اصطف الجميع فى نظام وأدب وفتح باب كبير ، وفى الحال ظهر الملك العظيم . ملك الوجهين البحرى والقبلى . مصحوبا بزوجته واسرته

وكانت العادة المتبعة قديما فى استقبال الملوك أن القوم الذين يحظون بمقابلة ملك من الملوك ينبغى لهم ان يركعوا له سجداً ويقبلوا الأرض بين يديه

ولقد اندثرت هذه العادة الآن فلا يبلغ حب الملوك واظهار الطاعة لهم حد السجود والركوع بين أيديهم

لما دخل فرعون انحنى الجميع أمامه باحترام لا مثيل له ورفعوا أيديهم كما لو كانوا فى صلاة دينية « للرب الطيب » وانتظروا صامتين متهيبين حتى يبدأ الملك بالكلام

وصوب فرعون نظره الى الجمع المحتشد أمامه ونقل بصره من واحد الى آخر حتى استقر على قائد قوات طيبة فسأله عن مقدار استعداد جيشه

هنا تقدم الجندى باحترام وانحنى بتهيب واجلال ولكنه لم يتفوه بكلمة فى الموضوع لأنه لم تكن العادة أن يتكلم مباشرة ، وراح يلقى قطعة مديح محفوظة تشيد بعظمة الملك وشجاعته وأقدامه فى الحروب قائلا أنه ، حيث تجرى جياده تفر أمامها جموع الاعداء ، ثم بعد ذلك على سؤال الملك وعلى هذا المنوال تقدم القواد والنبلاء والمستشارون ليجيبوا على الأسئلة الموجهة اليهم وليبدوا آراءهم فيما يبسط أمامهم من أمور الدولة

ولما انتهى الاجتماع أصدر الملك أوامره باعداد عربة ليحضر حفلة المعبد الدينية ، وخرج كما دخل بين صفوف ساجدة بين يديه مستغرقة فى عبادتها

بعد ذلك رأينا الباب الحصين يفتح على مصراعيه ، وخرجت ثلة من الجنود رافعة الرماح ، ثم وقفت على مسافة قصيرة من باب القصر . وعلى أثرهم خرج الحرس السردانى مثقلا بالاسلحة وعلى رؤوسهم الخوذ اللامعة وبأيديهم الدروع المتينة والسيوف الطويلة المسلولة وقد اصطفوا على جانبى الطريق ووقفوا كالتماثيل مترقبين ظهور فرعون

وسمعنا أصوات عجلات . وظهرت أمامنا عربة فرعون وهى تسير به شطر طريق المعبد . وقد سارت الجنود الرافعة الرماح فى المقدمة أما السردانيون فقد جروا بحذاء عربة الملك على كل من جانبيها . ولم يتأخروا عنها قيد شعرة رغم تثقلهم بالأسلحة

وما أن رأت الجموع المزدحمة عربة الملك ووقعت أبصارهم على فرعون حتى سجدوا على الارض ومسوا التراب بجباههم . وفرعون ينظر أمامه لا يلتفت يمنة ولا يسرة . وكان واقفاً منتصباً لا يتمايل ولو قليلا رغم اهتزاز العربة الشديد . وكان ممسكا بيده عصا معقوفة وسوطا وهما الرمز الملكى المصرى وعلى رأسه خوذة الحرب . وفى الجهة الامامية من هذه الخوذة أفعى مكونة قمة عالية بعدة لفات حول نفسها . وكان شكلها مخيفاً كأنها تهدد اعداء مصر . وكان يزين طلعته الجميلة بلحية مستعارة . ويغطى جسمه القوى الجميل بثوب من الكتان الابيض وحول وسطه نطاق ذهبى تصل أهدابه الى ركبتيه وفى طرفيه حيتان مزخرفتان ويجرى بجانب العربة حاملو المراوح من ريش النعام يحركونها فى اثناء جريهم دون ان يضطربوا لذلك . ومهارتهم تدعو للاعجاب والدهشة . ويتبع عربة الملك عربات الحاشية وهى على العموم أقل فخامة وعظمة من عربة الملك . وقد جلست فى العربة الاولى الملكة وبيدها زهرة اللوتس الجميلة يتضوع شذاها

أما الذين فى العربات الاخرى فجلهم أمراء يجرى فى عروقهم الدم الفرعونى وقد شاهدنا بينهم الامير الساحر « خامواس » وكان أعظم ساحر فى مصر ومن معجزاته قدرته على استحضار الاموات من القبور . وكان الناس يجفلون أمام بصره الحاد ويتهامسون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن درج البردى الذى يضمه الى صدره كان قد أخذه من قبر ساحر من ساحرى الايام القديمة

وفى دقائق معدودات مر الموكب بعد ان بهر الانظار بفخامته وبالاشعات المنعكسة على أسلحته وجنوده والجواهر التى على أفراده العظام

وجرت خلفه الجموع الغفيرة نحو معبد الكرنك

لقد رأيت فى لحظة أعظم رجل على ظهر البسيطة والظالم الجبار المذكور فى قصة بنى اسرائيل . كم كان قوياً وكم كان فخوراً !

وطبيعى أنه لم يكن يحلم بأن — اليهودى الصغير الذى تبنته ابنته — والذى ترنى بجامعة الكهنة بهليو بوليس . سوف يذل مصر فى يوم من الايام ويبدل عزها هوانا . وان اسم فرعون العظيم لم يكتب له الخلود وذيوع الصيت إلا لانه اقترن باسم « موسى »

الفصل الخامس

حياة الجندى

إنك إذا اطلعت على ما كتب عن المصريين فى الكتاب المقدس خيل اليك انهم أمة حرب وطعان وانهم لم يوجهوا همهم لشىء فى الحياة كالحرب والغزو، وحقا لقد حاربوا طويلا وانتصروا كثيرا واستطاعوا بذلك ان يكونوا امبراطورية عظيمة لم تصغر فى شأنها عن أى امبرطورية قامت فى العهد القديم،

ولكنهم لم يكونوا ميالين بطبعهم وسجيتهم الى الحرب والقتال ولم تكن روح المصرى مفعمة بذلك الميل الغريزى الذى يدفع صاحبه الى القتال فى أى فرصة ويسبب له من السرور والحبور ـ فى اثناء القتال ـ ما لا يمكن تصوره عقل انسان أى انهم لم يكونوا مثل اعدائهم الاسيويين والبابليين

ونحن الذين قدر لنا أن نتصل باحفادهم ـ المصريين الحديثين ـ وان يكون بيننا وبينهم من الامر ما هو معروف نعلم حق العلم ان المصرى ينفر من الحرب نفورا شديدا ولقد تحققنا من ذلك فى اثناء حروبنا معهم وضدهم

نعم قد يظهر الجندى المصرى مهارة خاصة ويبلى بلاء حسنا إذا قاده الى القتال قواد ماهرون ولكنه مع ذلك يختلف عن السودانى الذى يقاتل حبا فى القتال

المصرى يؤثر عيشة السلام على الحرب وليس اشهى لديه من الاقامة فى حقله بين اسرته وقطعانه يزرع الارض ويرويها، هكذا المصرى وهكذا كان آباؤه واجداده، ولكن إذا امر فرعون بالحرب فلا يوجد من يتردد فى طاعة امره، هنالك يحاربون تحت قيادته ويبلون البلاء الحسن، ولكن طول الوقت لا يشغل بالهم مثل وطنهم والحنين اليه وكم تكون سعادتهم عظيمة إذا انتهت الحرب وازف وقت الرجوع الى الوطن ومسراته الهادئة البسيطة

وعلى العموم كانوا شعبا مسالما رحيما ميالا للسرور والاخذ باسباب المسرات ولا تجد بينهم فظا غليظا كما تجد بين الاسيويين

وفى الحقيقة كان المصرى لا يرضى لنفسه ان يحترف الجندية لأنه كان يعتقد انها عمل مؤلم لا يختلف عن « الاعمال الشاقة » ففيها يتعرض الجندى لكل انواع الذل والمهانة ولا تظن ان سوء ظنه هذا بالجندية كان على غير الحق

اما مايرجوه فى الحياة فهو أن يفوز بعمل كاتب عند احد الاغنياء أو فى مصالح الحكومة يكتب التقارير ويحسب الحسابات ولما لم يكن فى الامكان ان تتسع الوظائف لجميع الشبان فقد كان الاب الذى يتمكن من توظيف احد ابنائه اسعد الآباء ولو انه من المحتمل جدا ان يحتقره الابن ويترفع عن الانتساب اليه والى اخوته الذين يزرعون فى الحقول او يخدمون فى الجيش

ولدينا الآن كتاب قديم كان كاتبه جنديا ثم رقى الى ضابط فى الادارة السياسية كتبه لشاب صغير مبينا له آراءه عن الجندية محذرا اياه أن يتخذها مهنة مستقبلة ، وكان الشاب ولوعا بأن يكون فى احد الايام من جنود العربات وهم الذين يقابلون الفرسان عندنا اليوم ، وكان يقف فى العربة جنديان احدهما يسوق ويقود الجياد والآخر يحارب بقوسه وفى بعض الاحوال بالسيف أو الرمح

وقد قال له أن فرسان العربات ليسوا احسن حالا من بقية الجند ، وقد يظهر العمل لقليل الاختبار جذابا جميلا . فلا يركب الجندى العربة حتى يظن أنه ملكا على الارض كلها ثم يذهب الى أهله بملابسه الجديدة فخورا مختالا

ولكنه معرض دائما لاشد انواع العقوبات واقساها إذا ارتكب اقل الاخطاء وأهونها ، فاذا جاء يوم التفتيش ووجد ان احد الجنود مقصر اقل تقصير أو ان أحدى معداته بها خلل لا يذكر فانه يطرح على الأرض ويضرب بالعصى ضربا مبرحا حتى يشرف على الهلاك من شدة الالم ، ويؤكد للشاب ان هذه الحالة التى وصفها تعد خيرا بكثير من حالة الجنود العادية . فانهم كانوا يجلدون فى ثكناتهم لأى هفوة تصدر منهم ، ثم انهم يتكبدون اشد المتاعب فى اثناء الحروب فيسيرون إلى سوريا الايام الطوال والأرض تأكل اقدامهم التى لم تلمس إلا ارض مصر اللينة . وكانوا يحملون معداتهم ولوازمهم وآلات القتال وبالجملة فقد كانوا ينوؤن تحت حمل ثقيل . وكثيرا ما كانوا يضطرون الى شرب الماء القذر فى اثناء اجتيازهم الصحراء غير مبالين بما قد تسببه لهم من الأمراض ، وهم الذين يقاتلون الأعداء

معرضين انفسهم للموت واجسامهم للتلف بينما يجلس القواد فى أمان وسلام . فاذا انتهت الحرب عاد الجندى منهم الى بلده مثخنا بالجراح مهدم البنيان ، مسلوب الملابس ، وذلك لأن النوبيين الذين يحرسون الامتعة ينتهزون فرصة اشتباك الفريقين فى القتال ثم يسرقون الامتعة ويلوذون بالفرار

وختم الكاتب كلامه بأن قال « خير من كل ذلك ان تختار لنفسك مهنة كمهنة الكتابة، وتعيش سعيدا فى وطنك»

واستطيع أن افول أن كلام هذا الكاتب صحيح وهذه الحالة التى كانوا يشكون منها قديما لا تزال على ما كانت عليه الى الآن ، ولكن رغما عن كل ذلك فقد استطاع فرعون أن يجمع الجيوش الجرارة فى وقت الخطر

ولم يكن الجيش المصرى كثير العدد مثل الجيوش التى نسمع عنها الآن أو التى نقرأ عنها فى كتب القدماء ، فالجيوش التى قادها الفراعنة الى ارض سوريا لم تكن تزيد على العشرين أو الخمسة وعشرين الفا . ولكن الغريب ان يكون الجيش ـ وهو على هذه القلة ـ كثير الجنسيات مثل جيشنا الموجود فى الهند

واهم فرق الجيش هى فرق الوطنيين من رماة القوس ورجال الرمح ، ويحمل الاولون الاقواس والسهام وهم أخف حملا من رماة الرمح الا انهم اشد خطرا فان المصريين اشتهروا بالمهارة فى الرماية مثل الانجليز القدماء وقد كانوا سبب انتصار فرعون فى كثير من الاوقات . اما الآخرون فيحملون الرماح والدروع وفى بعض الاحيان الفئوس والخناجر أو السيوف القصار

وهنالك فرقة من جنود العربات وهم من المصريين ايضا ويعتبرون ارقى درجة من المشاة ، ولم تكن مهمة جندى العربة من الامور السهلة فقد كان عليه أن يحفظ توازنه وان يصيب عدوه فى اثناء جرى الخيل وسير العربة ولا يخفى ما فى ذلك من الصعوبة وما يحتاجه من المران والثبات . وكانت خيول العربات تزين اجمل زينة

وفى كثير من الاحيان إذا خان الحظ الجندى المقاتل الموجود بالعربة يعمد الآخر « السائق » الى مساعدته ، فيلف عنان الجوادين حول وسطه ويبتدىء فى الطعان على أن يضبط الخيل بتمايله ذات اليمين وذات اليسار

ويحيط بعربة فرعون الحرس الملكى وكان مكونا من رجال يدعوهم المصريون « ارشردن » أو السردانيين ومن المحتمل أن يكونوا من القوم الذين اتوا مصر من جهة البحر ليرتزقوا من الخدمة فى الجيش . وكانوا يضعون على رؤوسهم الخوذ المعدنية ذات القرون وحول صدورهم الدروع القوية ، وبأيديهم السيوف الطويلة

وخلف هؤلاء تسير الجند المرتزقة وهم فرق سودانية على اجسامهم جلود الحيوانات المفترسة ، وفى المؤخرة جنود ليبيون من البدو

ويسبق الجميع فى اثناء الحرب فرق الكشافة يستطلعون الاخبار ويتجسسون على العدو ويمدون جيوشهم بالاخبار

وكان للملك حارس خاص به هو اغرب حارس فى العالم القديم والحديث لأنه كان اسدا مستأنسا ، درب لخدمة سيده والدفاع عنه باسنانه ومخالبه إذا هاجمه عدو

أما مهمات الجيش فكانت ترفع على ظهور الحمير ويرقبها الحمالون ، وكان المصريون من اعظم الناس احتمالا لمشقات السفر والمشى حتى ولو كان تحت اشعة شمس سوريا المحرقة وخلال طرقها المجهولة ، وكانوا يسيرون خمسة عشر ميلا يوميا لمدة اسبوع دون ان ينهكهم التعب ، والآن سأروى لك قصة جندى حدثت فى معركة من « اهم » معارك التاريخ

كان مينا من امهر راكبى العربات فى الجيش المصرى . وقد ساعده نبوغه على الترقى والتقدم مع حداثة سنه حتى اختير ليكون سائق عربة فرعون نفسه لما خرج الجيش من زارو « حصن مصر على الحدود » ليحارب جيوش الحيثيين فى شمال سوريا

ولقد سار الجيش مسافة طويلة مخترقا الصحراء ثم اراضى فلسطين عابرا الجبال ولم يظهر للعدو اثر . وكان مينا موجها اهتمامه لقيادة الخيل وإدارة العربة

وابتدأ الجيش ينحدر الى وادى الأورنت فى اتجاه قادش، وقد تسربت الكشافة الى جميع الجهات . ومكث الجيش ينتظر قدوم العدو وقد ساوره القلق

وكانت قادش ترى على مرمى البصر . وقد ظهرت فى الافق قمم ابنيتها وانعكست فى الفضاء اشعة الشمس المنعكسة على سطوح انهارها وسطح الخندق المحيط بها .

وكان السهل الممدود بين الجيش المصرى والبلد الزاحف عليها خاليا من اثر الانسان بما زاد فى دهشة الملك وقلق جنودة ، وجاءت الكشافة بالاخبار وأعلمت الملك بأن جيش الاعداء تقهقر الى الشمال من الخوف والفرق فظن الملك انه مستول على المدينة بلاعراك ، ثم أسرع بتقسيم الجيش الى اربعة فرق وقاد الفرقة الأولى وسار بها نحو قادش بجرأة عظيمة وبلا روية او تدبير بعد أن امر الفرق الأخرى باللحاق به على ألا تبدأ فرقة بالمسير الا إن ابتعدت منها الفرقة السابقة لها بمسافة معلومة

ووصلت الفرقة الأولى يقودها فرعون إلى شمال غرب قادش وعسكرت هنالك بعد أن أنهكها الاين والكلال وأخذ منها التعب كل مأخذ

ثم رفعت الأثقال عن ظهور الحمير لتأخذ قسطها من الراحة

وإذ كانت الكشافة تجوب الجهات المختلفة لتستطلع اخبار العدو عثرت فى طريقها بعربتين فقبضت عليهما وسارت بهما الى المعسكر وقدموها الى فرعون وأمر الملك بضربهما بالعصى حتى اعترف البائسان بأن ملك الحيثيين مختبىء فى الجهة المقابلة لمعسكر المصريين وأنه يتربص الدوائر لينزل باعدائه هزيمة منكرة

وأسرع الملك فانحى باللائمة على جنود كشافته واتهمهم بقلة التبصر والتسرع فى نقل الاخبار ، واصدر الأوامر بالتأهب للمسير

ولكن قبل ان يقفز الملك الى عربته - التى هيأها مينا للرحيل - دوت فى الفضاء ضوضاء مزعجة عند باب المعسكر ورؤيت الفرقة المصرية الثانية مشتتة الشمل ضائعة اللب . وهى تفر امام جيوش الحيثيين الجرارة . وعرباتهم البالغة خمسة وعشرين الفا والآخرون يقتلون فيهم ويأسرون

انتظر الملك فى مخبأه حتى وصلته الاخبار من جواسيسه بمعسكر الفرقة الأولى ولما درى بقدوم الفرقة الثانية امر بالهجوم عليها دفعة واحدة ولما كانت الفرقة منهوكة القوى من مشقة السفر لم تستطع المقاومة والثبات وانتهى الأمر بفرارها وانتصار الحيثيين عليها . وقد احدث فرارهم - ما هم عليه من تعب وبؤس - خوفا عظيما فى معسكر فرعون سرى فى نفوس الجميع ففر سوادهم مع بقية أفراد الفرقة الثانية ولم يبق لمقاومة الاعداء إلا فرعون وبعض افراد العائلة الذين ابت

شجاعتهم ان يسلموا للخوف ويولون الأدبار

ومع ما اظهره رمسيس من قلة التبصر وضعف النظر فى قيادة الجيش الا انه أبدى شجاعة نادرة وبسالة لامثيل لها

فبعد ان قفز إلى عربته امر اتباعه المخلصين باتباعه وأمر مينا بسوق العربة للقاء الاعداء. ولم يكن مينا جبانا ولكنه لمارأى عربات المصريين التى تعد على الاصابع ثم شاهد عربات الاعداء التى لاتعد ولا تحصى شعر بالرغم منه بالخوف يهز قلبه .

ومع ما اختلج فى نفسه من الخوف لم يفكر لحظة فى الهروب أو العصيان ولكنه وهو يميل الى الامام ليقود الخيل همس فى أذن فرعون « ياقوة مصر العظيمة فى م الحرب . انقذنا »فاجابه « الثبات . . الثبات . سافترس جموعهم كالباز »

وفى الحال سابقت جياد مصر الريح قاصدة جيوش الاعداء وكان لاندفاعها غير المنتظر أثره فى نفوس الحيثيين . حتى ان فرعون واتباعه اخترقوا الصفوف وغاصوا فى لجتها وكان مينا منهمكا فى عمله حاصرا عقله فيه غير مبال بما قد يصيبه من الآف السهام المتطايرة فى الجو وكان فرعون يقاتل بمهارة منقطعة النظير وكان قوسه يرسل السهام باستمرار فتصيب مقاتل الحيثيين وتصرعهم من عرباتهم . وكذا فعل الأمراء الذين كانوا يتبعون فرعون وقد تركوا خلفهم صفوفا من القتلى والجرحى

وهكذا استطاع فرعون ان يفتح ثغرة من صفوف الاعداء ولكنهم كانوا جموعا زاخرة يزيدون عليه وعلى اتباعه الآف المرات . وكانت بعض العربات المصريات قد اتجهت جهة الجنوب لتأتى بنجدة من جنود الفرقتين الباقيتين ولكن كان يلزم لوصولها مضى وقت غير قصير

وكان مما يزيد الحالة حرجا أن ملك الحيثيين على رأس جيش يبلغ الثمانية آلاف كان معسكرا على شاطىء النهر الآخر ولو أنه اسرع بعبور النهر لقضى على رمسيس ومن معه ، ولم يبق امام فرعون الا القتال فقاتل بشدة هو وجنوده واستطاع بمهارته ان يجعل بعض عربات الحيثيين بينه وبين النهر وامن بذلك شر نبال الجنود المعسكرة على الشاطىء الآخر وبعد فوات زمن غير قصير ظهرت طوالع الفرق المصرية وفى الحال انضموا الى إخوانهم واخذ الفرق بين الجيشين يقل نوعا ما عما قبل . وكانت جمهرة المصريين قد خلت من السهام فسلوا السيوف واطلقوا الرماح وهنا حمى وطيس القتال واخذ الاعداء فى التقهقر صوب النهر ، وقد وقف ملك

الحيثيين على الشاطىء الثانى من النهر مندهشا لما رآه أمامه . وقد فات الوقت لعبوره النهر واشتراكه فى القتال اما الآن فلم يكن فى الامكان عبور النهر لامتلاء الشاطىء الآخر بعربات الحيثيين وجنودهم بما لم يدع مكانا لجنود جديدة

ومما زاد فى فرح المصريين وقوى ساعدهم وصول الفرقة الأخيرة ، وأسرع بقدومها الهلاك الى جنود الاعداء . وأخذوا يتساقطون فى النهر . وكانت مذبحة عظيمة وانتهت بهروب الاعداء ، وقد رصد لهم رماة القوس من المصريين يرمونهم بسهامهم فيقتلون منهم من يقتلون ويجرحون من يجرحون . وقتل من الحيثيين شقيقا الملك ورئيس حراسه ، وأعظم كتابه وحامل درعه

أما ملك الحيثيين فقد سقط فى النهر وهو يجتاز مخاضة فيه وكاد يموت غرقا لولا ان رمى أحد أتباعه بنفسه فى الماء وأنقذ الملك من يد الهلاك المحقق ، فترك ميدان القتال بعد ان ضاعت من يده فرصة عظيمة للقضاء على عدوه اللدود وآب بالفشل والخذلان

وبعد انتهاء المعركة دعا فرعون قواد الجند أمامه ، وقد وقفوا متخاذلين تعلو وجوههم حمرة الخجل لما بدر منهم من دلالات الجبن فى بادىء المعركة أما فرعون فقد خلع عن رقبته الملكية طوقا ذهبيا ووضعه حول رقبة تابعه الامين مينا ثم وبخ قواده عن تركهم له ليواجه الاعداء بمفرده وفرارهم جبناً وخوفا ثم حدثهم عن مينا وكيف انه لم يتركه ساعة الخطر وختم الحديث بقوله « ولا انسى جوادى عربتى وسوف يتناولان طعامهما يوميا — أمامى — فى السراى الملكية » ولما كان الجيشان قد خسرا خسارة عظيمة وأخذ التعب منهما كل مأخذ فقد تعذر عليهما مواصلة القتال وقبلا عن رضاء خاطر الهدنة ، وانسحب الحيثيون الى الشمال ورجع المصريون الى وطنهم ، ولم يربحوا شيئا رغما عما بذلوه من جهد وأبدوه من بسالة ولكن فرحهم بالنجاة من الهلاك المحقق أنساهم ماخسروه . وكم كان مينا فخوراً وهو يسوق عربة الملك داخل أسوار « زارو »

وسار الجيش بين جموع الشعب التى أتت لاستقباله ولنثر الورود على جنوده وكانوا من جميع الطبقات فيهم الكاهن والتاجر والنبيل

ولم يكن يوجد بعد رمسيس الذى أنقذ جيشه ووطنه وشرفه من يستطيع ان يفتخر بعمله مثل مينا الذى وقف بجانب سيده فى أشد حالات الخطر

الفصل السادس

حياة الطفل

كيف كانت حياة الاطفال فى تلك الأرض القديمة منذ هذه الآلاف من السنين ؟ ماذا كانوا يضعون على أجسامهم من الملابس وما هى أنواع اللعب التى كانوا يغرمون بها وما هى العلوم التى كانوا يدرسونها ؟

لو أنك كنت من أحياء مصر فى ذلك العهد القديم لتبينت مابين حياة طفلنا الآن وبين حياة الطفل القديم من تباين ، ولا يمنع ذلك من ذكر أوجه التشابه بين أطفالنا وأطفالهم

كان الصبيان والبنات صبياناً وبناتاً كما هم الآن ، لاتختلف تصرفاتهم عن تصرفات أطفالنا ولا تفترق العابهم — تقريبا — عن العابهم

أنك لو تقرأ بعض القصص الخرافية تجد ان للصبى الصغيرفيها « جدةخرافية» تحوم حوله أثناء الليل وتنير فراشه وتهديه الهدايا وتتنبأ له عنالمستقبل ، وهكذا كان فى الازمنة القديمة ، فكان إذا ولدت « تاهوتى » الصغيرة أو « سن سنب » فى طيبة قبل الميلاد بآلاف السنين ، وجدت لها « جدة خرافية »تتنبأ لهابالحوادث والمستقبل ، وكان فى مصر طائفة يطلق عليهم المصريون اسم « هافورز »ليس لهم من عمل الا التنبؤ عن المستقبل وكان عهد الطفولة أطول مما هو الآن ، فكان على الام السعيدة ألا تترك طفلها يغيب عن ناظريها ثلاثة سنين متوالية فتحمله على كتفها أينما توجهت

واذا مرضت الطفلة ودعت أمها طبيباً فانه يصف لها من الادوية مايختلف عن أدويتنا كل الاختلاف . فلم يكن الطبيب المصرى يعرف الشىء الكثير عن الامراض والادوية وهو لجهله هذا كان يجرع مريضه أقذر ماعرف الانسان من جرعات الادوية . ولا أظن أنك ترضى ببلع حبوب مصنوعة من عصير مياه

أذن الخنزير ودماء الضب ، ولحمة قذرة ، وكان الطبيب اذا فحص المريض كثيراً مايقول « ليس هذا الطفل مريض انما هو مسحور » وعلى ذلك يكتب هذه « الوصفة »

« علاج يقى من السحر »

خذ خنفساء كبيرة ، واقطع رأسها وجناحيها ، ثم اسلقه وضعه فى زيت واتركه بعد ذلك ، واطبخ أجنحته ورأسه واسق الخليط للمسحور »

وأظن ان القارىء يؤثر عذاب السحر على أكل مثل هذه الوصفة ، وفى أحيان أخرى يكتفى الطبيب بكتابة كلمات سحرية غامضة على ورقة قديمة يربطها بالعضو الموجوع

وكان كثير من الامهات — إذا ظهرت على أطفالهن أعراض مرض — ظنن ان عفريتا يزعج الاطفال ، فاذا صرخ طفل من ألم المرض قامت أمه وجابت أنحاء الغرفة وهى تقرأ هذه الكلمات : مخاطبة الشيطان

هل أتيت لتقبيل الطفل ؟	لاأسمح لك ان تقبله
هل أتيت لتهدئة خاطره ؟	« « « أن تهدىء خاطره
هـــل أتيت لتؤذيه ؟	« « « بأن تؤذيه
هل أتيت لتخطفه منى ؟	« « « أن تخطفه

فاذا برىء الطفل من مرضه وذهب عنه العفريت خرج ليلعب . والطفل وأخته يستحمان كل صباح ولكنه لما كان الجو حاراً عظيم الجفاف لم يحتاجا للملابس التى تغطى الاجسام فكانا يلعبان عرايا الا مما يستر عورتيهما

وكانت أدوات لهو الاطفال كثيرة الشبه بأدوات أطفالنا الآن ، فكان تاهوتى يلعب برجل خشبى إذا شد فتيلة متصلة بوسطه وذراعيه ، انحنى مثل الخباز وكان يلهو أيضا بتمساح إذا ضغط على ظهره فتح فاه . أما الطفلة فكانت تلعب بعروس مزخرفة وبدمية لها نوبية ، وفى كثير من الأحايين كانا يلعبان الكرة مع بعضهما

هكذا كان يمضى الطفل الاربعة سنين الأولى من سنى حياته فاذا تجاوزها أرسلوه إلى « الكتاب » ويظل تاهوتى عارياً إلا من هذه القماشة التى تحيط بوسطه وهو فى المدرسة كما كان وهو فى البيت ، أما شعره الاسود فيضفر ويرسل من فوق أذنه اليمنى

ويبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ولم يكن ذلك أمراً بسيطا الا ان الكتابة المصرية وان ظهرت فى شكل بديع يثير الاعجاب والدهشة اذا نسختها يد ماهرة متمرنة ، فان تعلمها أمر من أشق الأمور ، خاصة وان المبتدىء كان عليه ان يجيد كتابة أسلوبين مختلفين ولا أظن أنك لوطالعت فى كتب — أمليت فى عهد قديم للتلاميذ — تعثر على شىء عظيم الاهمية ، ولدينا الآن عدة كتب مصرية مملاة أو منسوخة من كتب أخرى وقام بنسخها التلاميذ أثناء تمرينهم على الكتابة ومن هذه الكتب يتبين لنا بوضوح ما كان يغرم بقراءته قدماء المصريين ، لأن، هؤلاء التلاميذ كانوا يكتبون كلمات حكمائهم وبعض القصص القديمة أثناء تمرينهم على إجادة الخط . هذا مانفهمه من هذه الكتب التى كلفت كاتبيها من المشقة والعناء مالا يحكم به كاتب الان ، ولما كان المدرسون المصريون يعتمدون على العصا فى تأديب التلاميذ وتعليمهم فكثيراً ما كانت تاهوتى الصغيرة تذرف الدمع وهى فى المدرسة . وكان التلميذ المسكين ينتظر يوميا « الجلد » كما ينتظر الطعام الذى تحضره له أمه ، وكان مدرسه يقول له « أذنا الطفل فوق خداه ، وهو يصغى جيداً كلما ضرب »

وقد كتب تلميذ الى معلمه القديم بعد ان ترك المدرسة بمدة طويلة يقول « كنت تحوطنى برعايتك أثناء تربيتى وتعليمى وأنا طفل صغير ، ولقدضربتنى عصاك على ظهرى فرسخت كلماتك . فى أذنى »

أما إذا كان الطفل عنيدا فانه يعانى أنواعا من العقوبات يهون بجانبها ضرب العصا ، فلقد كتب تلميذ لمعلمه « لقد كنت شديداً على وأنا تلميذك ، وانى لاأزال أذكر ثلاثة أشهر قضيتها فى المعبد عقاباً لى »

وكان وقت العمل المدرسى نصف يوم يخرج بعده التلاميذ الى منازلهم وهم يصيحون من الفرح والسرور . ولم تتغير هذه العادة رغماً عن طول ما بيننا وبينهم من الزمن

ولا أظن أنهم كانوا يقومون ببعض الواجبات المدرسية فى منازلهم وربما كان وقتهم فى المدرسة أقل فظاعة مما نتخيل عنه بسبب ماذكرنا من وصف عقوباتهم

واذا كبر « سن سنب » عن ذلك قليلا واتقن أصول الكتابة يطلب معلمه منه — على سبيل الامتحان — أن ينسخ له عدة صحائف من خيرة الكتب المصرية ، وكان غرضهم من ذلك ان يتقن الناشيء كتابة الخط ولينمى ملكة انشائه فكان ينقل من كتب شعرية أو دينية أو من الاساطير

ولم يكن هم المعلم من إملاء تلميذه القطعة أو أمره بنقلها من كتاب أو نحوه ان يحسن خطه فقط وانما كان يأمل فوق ذلك ان يثقف عقله وينير ادراكه بالافكار السامية

لذلك كان يختار موضوعات مفيدة مثل « نصيحة ملك لابنه » وغيرها . وفى بعض الاحيان كان المعلم يكاتب تلاميذه كما لو كانوا أصدقاء فرق بينهم الدهر

وتعليم الحساب لحسن الحظ لم يكن يستوجب حفظ قواعد كثيرة . وعلى العكس كانت قواعده محدودة . فيبدأ المعلم بتلقين التلميذ مبادىء الجمع والطرح والضرب بالطريقة التى كانت حينذاك . عقيمة وبطيئة أما القسمة فلم يكن التلاميذ يتعلمونها ليس لسبب الا ان المعلم نفسه كان يجهلها

وكان التلميذ يتعلم شيئاً عن قياس مساحة الاراضى بطريقة بدائية عقيمة ، وينتهى تعليمه الاولى اذا أتقن ما قدمنا من العلوم

بعد ذلك يتعلم مايؤهله لعمل يسترزق منه فى المستقبل . وإن أراد التلميذ ان يعمل ككاتب عادى ، لايحتاج للاستزادة من العلوم عما قدمنا لأن عمل الكاتب الصغير لايخرج عن القراءة والكتابة والحساب ، أما ان كان فى نيته ان يكون ضابطاً فى الجيش فلا بد له من الالتحاق بالمدرسة الحربية

ولكى يكون كاهنا ، كان يلتحق بجامعة معبد من معابد الارباب حيث يتلقى — كما كان موسى يتلقى — كل ما انتجه العقل المصرى فى مختلف العلوم ويقرأ كتب الدين التى تبحث عن الآلهة والتى تكشف النقاب عن سر الحياة بعد الموت وعن المكان التى تحل فيه الروح بعد ان تترك أجسامها الفانية

ونحن نجهل بعد ذلك ما لو كان التعليم يتناول تقويم الخلق واعداد الشاب للحياة الاجتماعية أم لا ، وكل مانعلمه أنهم كانوا يعتنون عناية خاصة بتخريج الطفل ويعودونه على احترام الكبار فلا يجلس وهم واقفون ولا يخل بأدبه ووقاره

أمامهم ، وعلى رأس هؤلاء الواجب احترامهم وتبجيلهم يضع الطفل والديه وخاصة أمه لأن المصريين كانوا يخصون أمهاتهم باحترام لايطمع فيه كائن آخر . ولكى أبين ذلك أنقل للقارىء نصيحة من أب لابنه قال

« يجدر بك الا تنسى ماتكلفته أمك من المتاعب من أجل راحتك وتربيتك فلقد حملتك فى بطنها وغذتك صغيراً ، ولم تتركك أبداً ، ثم تعهدتك بالتربية والتقويم ثلاث سنوات واحاطتك بعين العناية والرأفة . ولما دخلت المدرسة لتنهل من موارد العلم ، كانت تحضر لك كل يوم غذاءك من الخبز والجعة فان أهملتها بعد ذلك حق عليك لومها ، وان الرب ليسمع شكواها ويستجيب دعاها »

ور بما كان أبناء اليوم لا يعملون بهذه النصائح التى بقيت لنا فى أقدم كتب فى العالم

ولكن لا أخالك تظن أن حياة الطفل المصرى لم تكن الا تربية وتعلما

ففى أثناء العطلة تذهب العائلة المصرية إلى الغابات لتمضية يوم فى صيد الاسماك أو صيد الطيور ، فاذا كانوا قاصدين صيد الاسماك أنزلوا فى الحال قاربا من قصب البردى ثم حركوا مجاديفهم وهم مسلحون بالحراب ، وكانت حربة الصيد ذات شعبتين من الامام . وكانوا إذا رأوا الاسماك فى باطن مياه البحيرات الهادئة الصافية صوبوا نحوها الحراب ليصطادوها ، وان ساعد الحظ فقد تصطاد الحربة سمكتين ، سمكة فى كل شعبة

أما صيد الطيور بين المستنقعات فاعجب من ذلك بكثير . وفى هذه الحالة لاتستعمل الحراب وانما يتسلحون بعصى مقوسة تستعمل الرماية ، ويستصحبون معهم مساعدا غير مألوف

فى هذه الايام ، يستصحب الصائد معه كلباً يدربه على احضار الصيد الذى يسقط من رشاش بندقيته وكان للمصريين كذلك كلاب يستعملونها فى صيد الحيوانات أما فى صيد الطيور فكانوا يدربون القطط بدلا من الكلاب

يسير القارب بهم فى المستنقع بين الغاب الكثيف حيث يعيش البط وغيره من الطيور المائية ثم يقف فى جهة تخفيه عن عيون الطير

فاذا طارت بطة أو أوزة صوب الاب أو ابنه نحوها عصاة وأطلقها بمهارة فاذا أصابت الهدف ووقع الطير جرى نحوه القط وأتى به الى سيده من بين الغاب

وكان فرح الاطفال بالصيد عظيما ولم يكن ألذ عندهم من وجودهم فى القارب ينتظرون طيران طائر ليصطادوه . وأنه وان لم يكن يعرفون من فنون اللهو مانعرف الآن الا أنهم فرحوا بما كان بين أيديهم كما نفرح بما بين أيدينا

الفصل السابع

بعض الاساطير

كان الأطفال ذوو الوجوه السمر الذين يعيشون فى مصر منذ ثلاثة آلاف سنة مغرمين مثل أطفالنا بالقصص التى تبدأ بـ « يحكى أن » وسأقص عليك الآن بعض القصص التى كانت تحكى لتاهوتى « ورسن سنب » إذا خيم الليل وإذا انتهيا من عملهما المدرسى ولهوهما

وهى أقدم قصص خرافية ولو أنها منسية الآن ، وقد اخترعت قبل أن يفكر أحد فى كتابة قصة « جاك » و « بينستوك » بقرون عديدة

فى ذات يوم دعا الملك خوفو « وهو الذى بنى هرم الجيزة الاكبر » أولاده وعقلاء مملكته ثم قال لهم « هل فيكم من يستطيع أن يروى لى قصص قدماء الساحرين ؟ . » وهنا وقف الأمير بوفرا ـ ابن الملك ـ وقال « مولاى ـ سأروى لكم قصة غريبة حدثت فى عهد الملك سنيفرو أبيكم العظيم »

فقد تضايق الملك يوما وشعر بالسأم والضجر ولم يجد ما يفرج به عن نفسه الملل ، وأخيراً قال لضباطه « احضروا الى الساحر « زازامانخ » فلما مثل بين يديه قال له الملك « أيها الساحر زازامانخ ، لقد بحثت فى جميع قصرى فلم أجد مايذهب عنى الملل »

فقال الساحر « تفضل يامولاى بالركوب فى القارب ودعه يسير بنا فى بحيرة القصر ومر باحضار عشرين فتاة ليحركن المجاديف ، وركب فى القارب مجاديف من الابنوس المرصع بالذهب والفضة ، ولا بد أن تفرج عنك يامولاى بالنظر الى طيور الماء وشواطىء البحيرة الجميلة والحشائش الخضراء وتعيد لنفسك سرورها »

وركب الجميع فى السفينة الجميلة التى سارت بهم فى بحيرة القصر ، وكان على كل جانب من جانبى السفينة تجلس تسع فتيات يجدفن . أما الاثنتان الباقيتان

وكانتا أجمل الفتيات فقد جلستا فى مؤخر السفينة بجانب الدفة ، وأخذا ينشدان لحنا خاصا للتجديف ، وابتدأ السرور يعاود الملك كلما توغل القارب داخل البحيرة وكانت المجاديف ترتفع فى الهواء وتغوص فى الماء على نغم الفتاتين الجميلتين

ولكن حدث أن مجداف احدى الفتاتين الجميلتين لمس خطأ رأس الفتاة الثانية فسقط تاج فيروزى صغير كان على رأسها ، فتوقفت عن التجديف وعن الغناء وتوقفت الفتيات اللائى فى صفها كذلك . فسأل الملك « لم توقفتن عن العمل ؟ »

فأجابت الفتاة « ذلك لان تاجى الفيروزى سقط فى الماء » . فقال الملك

— « استمرى فى الغناء وسأعطيك واحداً غيره »

— « أريد تاجى القديم ولا أرغب فى امتلاك سواه »

فدعا الملك الساحر وقال له « لقد سر قلبي لاتباعى مشورتك ، ولكن سقط تاج هذه الفتاة فى الماء ودعاها ذلك للسكوت مما جعل جميع فتيات صفها يتوقفن عن التجديف وهى ترغب فى استعادة التاج المفقود »

وهنا وقف الساحر فى القارب وفاه بكلمات غريبة غامضة

وعلى أثر ذلك ارتفعت المياه الموجودة فى نصف البحيرة وتجمعت على سطح مياه النصف الآخر حتى ارتفعت بذلك المياه الى علو عظيم ، ووقفت سفينة الملك على سطح المياه العالية وظهر قعر البحيرة فى النصف الآخر منها وما فيه من الاصداف المتلألئة تحت أشعة الشمس ورؤى التاج الصغير على صدفة مكسورة ، فقفز الساحر وأتى به ورجع الى السفينة . ثم فاه مرة أخرى بكلمات غريبة فرجعت البحيرة الى ما كانت عليه أولا

أمضى الملك يوما سعيدا ووهب للساحر مالا وهدايا

ولما أتم ابن الملك قصته سر بها الملك ولهج لسانه بمدح القدماء والثناء على أعمالهم

ثم قام ابن آخر له هو الامير « هورداديف » وقال « أيها الملك ، هذه قصة من قصص الأيام الغابرة ولا يستطيع أحد أن يجزم بصحة خبرها أو كذبه . أما أنا فسوف أقدم بين يديك ساحرا يعيش فى زماننا هذا »

— « من هذا الساحر يا هورداديف ؟ »

« اسمه ديدى وعمره مائة وعشرة أعوم ، وطعامه اليومى خمسمائة رغيف وشرابه مائة ابريق من الجعة وهو ـ بفنونه السحرية ـ يستطيع أن يثبت رأسا فصل عن جسمه ، وله القدرة على أن يخضع أسد الصحراء له ويجعله يتبعه ذليلا مستكينا ، ويعرف سر منزل الرب الذى طالما تشوقت لمعرفته »

وفى الحال أمر الملك ابنه باحضار الساحر وصدع الامير للأمر وأتى به فى القارب الملكى

وخرج الملك الى فناء القصر ومثل ديدى بين يديه فسأله الملك

— « لم لم أرك من قبل ياديدى ؟ وأجابه الساحر

— « وهبك الرب الحياة والصحة والقوة أيها الملك ، ان المرء لا يحظى بالمثول بين يديك الا اذا دعوته »

— « هل صحيح أنك تستطيع أن تثبت رأسا فصل عن جسده :

— « هذا صحيح يامولاى »

فقال الملك « احضروا سجيناً واقطعوا رأسه وسنرى كيف تثبته فى جسمه »

— « أطال الرب عمرك أيها الملك ، الاوفق أن نقطع رأس حيوان أو طير على أن نفصل رأس انسان » وأتوا بأوزة وقطعوا رأسها ثم وضعوا الرأس فى ركن والجسم فى ركن آخر ، ووقف الساحر يتمتم بكلمات غامضة ، فحدث مابعد معجزة إذ تحرك الرأس نحو الجسم وسار الجسم ناحية الرأس ثم التصقا ببعضهما كما كانا ، وقامت الاوزة على قدميها أمام عرش الملك ثم صاحت

ثم أعاد ديدى التجربة على رأس ثور ضخم ، ولما شاهد الملك ذلك قال للساحر

— « وهل حقيق تعرف سر منزل الرب ؟

— « نعم . هذا صحيح ولكنى لست أنا الذى استطيع أن أعلمك به »

— « اذن من الذى يستطيع ؟

— « هو الولد الاكبر للسيدة « رده ديديت » زوجة كاهن رع إله الشمس ، وقد وقد وعده رع بأن أولاده الثلاثة سوف يحكمون مملكتكم »

ولما سمع الملك هذه الجملة اضطرب قلبه وظهرت على وجهه علامات القلق ، فقال ديدى : « لا تضطرب أيها الملك فسوف يحكم بعدك ابنك وسوف يحكم

يعده ابنه ، ولكن بعد هذا الحفيد سيؤول العرش الى أحد الابناء الثلاثة »

وأمر الملك بأن يقيم الساحر فى القصر وأن يقدم له يومياً مائة رغيف ومائة أبريق من الجعة وثور ومائة بصلة .

ولما ولد الأولاد الثلاثه أرسل اليهم رع أربع ربات ليكن مربياتهم .

وقد جئن فى لباس الراقصات المرتحلات وجاء معهن رب فى زى حمال ، فلما رين الأطفال الثلاثة قال لهن زوج رد ديديت « أيها السيدات أى أجر تطلبن ؟

ثم أعطاهن أكياسا مملوءة شعيراً ، وذهبن بعد أن أخذن أجرهن

ولما بعدن مسافة قصيرة قالت رئيستهن وهى ايزيس « لم لانفاجىء الكاهن بأعجوبة ؟ » وعليه فقد صنعن تيجانا منها تاج مصر الاحمر وتاجها الابيض واخفينها فى كيس الشعير ووضعنه فى مخزن « رد ديديت » وذهبن الى حال سبيلهن

وبعد مضى أسبوع ـ وكانت رد ديديت تصنع بيرة لأهل المنزل ـ أرسلت خادمة لها الى المخزن لتحضر كيسا مملوءاً شعيراً ، وذهبت الفتاة الى المخزن ولكنها لم تمكث فيه دقيقة حتى سمعت نغمات شجية وصوت غناء ورقص مما لا يسمع مثيله الا فى قصر الملك ، فارتعبت الفتاة ورجعت لسيدتها وأخبرتها بالأمر ونزلت السيدة فسمعت الموسيقى الملكية ، ولما حضر زوجها أخبرته عن قصة الغناء ، وعلم من ذلك أن أولاده سيحكمون مصر ، وقد باتت الاسرة هذه الليلة على أسعد ما يكون . وبعد مدة قصيرة من هذه الحادثة بدا من تصرف الخادمة ما حمل سيدتها على طردها بعد ضرب موجع . وقالت الخادمة لخدم المنزل وهى تودعهم :

« هل يصح أن تعاملنى هذه المعاملة ؟ لقد ولدت ملوكا وسأنقل خبرهم الى الملك خوفو » وانصرفت الى عمها وأخبرته بما عقدت العزم على عمله ، ولكنه غضب من ذلك ولم يرض أن تخون الأطفال الأبرياء وضربها بسوط ضرباً أليما

وتركت منزل عمها وهامت على وجهها ، وبينما هى تسير على شاطىء النيل ظهر تمساح فجأة وجذبها اليه واختفى بها فى الماء

وهنا ـ للأسف ـ تنتهى القصة ولم نعرف هل حاول خوفو قتل الأطفال أم لا ، فان أوراق البردى مفقودة لا يعلم أحد عنها شيئاً

ولكننا نعلم أن الملوك الثلاثة الذين خلفوا أسرة خوفو فى حكم مصر كانوا يحملون أسماء كأسماء أولاد كاهن رع

هذه هى أقدم الاساطير فى العالم ، وقد لا تكون جميلة جذابة بحيث تستثير اعجابك ، ولكن يلزم أن تعلم أن لكل شىء بداية وأن الذين كتبوا هذه القصص لم يكونوا مدربين فى فن القصص كما نحن الآن



الفصل الثامن

بعض الاساطير

أما هذه القصة التي سأرويها الآن فقد كتبت في زمن أحدث بمئات السنين من القصص التي رويتها في الفصل السابق . وأستطيع ان أقول ان الاطفـــال المصريين القدماء كان ينظرون اليها كما ينظر الاطفال الآن الى قصة السندباد البحرى وأنهم كانوا يشعرون بلذة في اثناء تلاوتها تعادل مايشعر به أطفالنا الآن في اثناء قراءة السندباد البحرى

وهي تدعى « قصة ملاح السفينة المكسورة » والملاح نفسه هو الذى يقصها لنبيل مصرى . حدث الملاح قال :

أبحرت سفينتى على قصد التجوال حول ملك فرعون العظيم ، وكانت سفينتنا من أعظم السفن لايقل طولها عن ٢٢٥ قدماً وعرضها عن ٦٠ قدماً ، وكان عدد ملاحيها ١٥٠ رجلا من صفوة ملاحى القطر ، شداد القلوب كالأسود . وكنا جميعاً سعداء يصور لنا الأمل رحلة جميلة وعوداً هنيئاً . ولكن عند اقترابنا من أحد الشواطىء هبت عاصفة عظيمة أثارت الامواج ثوراناً عظيما حتى ارتفعت كالجبال العالية . فغرقت سفينتنا الجميلة وغمرتها المياه وذهب كل مجهود بذلناه لانقاذها سدى

وكان من حسن حظى أن تعلقت بقطعة خشب كبيرة . حملتها المياه وأنا عليها ثلاثة أيام طوال حتى رست بى على شاطىء جزيرة . وكنت إذ ذاك وحيداً فقد غرق كل من كان معى على ظهر الباخرة . فرقدت تحت غصون بعض الاشجار وقد انهكت قواى

ومكثت على هذه الحالة مدة لا أعرف قدرها حتى استرددت بعض نشاطى فقمت ابحث عن طعام . ولم أبذل جهداً في ذلك لأن الجزيرة كانت غنية بالفواكه كالتين والعنب ومختلف الحبوب وأنواع الطيور . فأكلت حتى شبعت وأوقدت

نارا . ثم قدمت تضحية للآلهة معبرا عن الشكر والحمد لتفضلها على بالحياة والنجاة بعد الموت المحقق

وجلست مفكرا . ثم دوى فى الفضاء صوت صارخ كالرعد القاصف أزعج السكون الشامل . وهز الاشجار وزلزل الارض . فنظرت حولى بخوف مستطلعاً فرأيت ثعبانا هائلا يزحف نحوى . وكان طوله خمسين قدما وطول شوكته ثلاثة أقدام . وكان جسمه يتلألأ تحت أشعة الشمس كالذهب . ولما اقترب منى التف حول نفسه حتى صار كعمود مرتفع ذى حلقات فارتعبت وسقطت على وجهى من شدة الخوف والفزع . فابتدرنى قائلا :

« ما الذى أتى بك الى هنا ؟ أيها الشيء الصغير . ما الذى أتى بك الى هنا ؟ تكلم أنك ان لم تخبرنى سريعا عما أتى بك الى هذه الجزيرة فسأفنيك كما يفنى اللهب »

ولم يتم حديثه حتى أخذنى فى فمه وحملنى الى وجاره وتركنى على الارض ولم يمسنى بأى سوء ثم قال ثانيا :

« ما الذى أتى بك الى هنا أيها الشيء الصغير ؟ ما الذى أتى بك الى هذه الجزيرة ؟

وهنالك قصصت عليه تاريخ رحلتى من وقت أبحارنا الى مصر حتى ساعة غرق السفينة وأخبرته كيف غرق زملائى ونجوت وحدى فقال لى :

« لاتخف أيها الصغير . وأمسح مسحة الحزن عن وجهك . اذا كنت أتيت الى هنا فالرب هو الذى أرسلك الى هذه الجزيرة المملوءة بالخيرات . اسمع الآن ستقيم هنا أربعة أشهر . وفى نهايتها ستقدم سفينة من وطنك الى هذه الجزيرة وستعود فيها الى وطنك آمنا حيث تموت فى مسقط رأسك . وان أردت أن تعلم شيئا عنى فاعلم أنى أقيم هنا مع رفقاء لى ومع أولادى . وعددنا جميعا خمسة وسبعون وبجانب ذلك كانت توجد فتاة صغيرة . أتى بها القدر لى هنا وقد حرقت بنار من السماء . واذا كنت قويا وصبورا فسوف تعانق أولادى وزوجتى . وتعيش معنا سعيدا حتى تعود الى وطنك »

وهنا انحنيت أمامه باحترام ووعدته بأن أقص خبره لفرعون وان أعود اليه بسفن محملة من جميع كنوز مصر التى لايوجد مثيل لها فى البلدان الاخرى . ولكنه ابتسم لكلامى وقال :

« ليس فى بلادك ما أرغب فيه ، لأنى أمير بلاد « بنت » وكل كنوزها ملك لى ، وفوق ذلك فانك بعد ان ترحل من هنا لن ترى هذه الجزيرة مرة أخرى لأنها ستكون حينذاك أمواجا كأمواج البحر »

وانتظرت أربعة أشهر وقد صدقت كلمة الثعبان وأتت السفينة الموعودة وقد حدثنى الثعبان قائلا « وداعاً وداعاً ، اذهب الآن الى وطنك ، أيها الصغير : وتمتع برؤية أطفالك بعد هذا الغياب ، ولا تذكر اسمى إلا بالخير ، هذا كل ماأرغب فيه

وودعته وركبت السفينة بعد ان زودنى بعطايا نفيسة مثل العاج والاخشاب وغيرهما

وقد وصلنا أرض مصر بعد شهرين فى الماء وساحظى بالمثول بين يدى فرعون وأقص له قصتى وأقدم له هدايا الثعبان وسوف يشكرنى الملك فى حضرة عظماء مصر ا . هـ

* *

أما القصة الاخيرة فقد كتبت بعد قصة السفينة السابقة بمدة طويلة

فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد حكمت مصر أسرة مالكة اشتهرت بميلها الحربى ، وقد أسس أفرادها امبراطورية كانت من السودان جنوباً الى سوريا وناهارينا شمالا ، وكانت هذه الامبراطورية أرضا مجهولة قبل فتحها وامتلاكها ، فكانت هذه الارض مثل أمريكا على عهد الملكة اليزابيت

وهذه القصة هى « الامير المقضى عليه بالهلاك » التى سأرويها لك تمثل بعض أدوارها فى ناهاريا والبعض الآخر فى مصر وهى — كما سترى — تمت بأسباب كبيرة الى قصصنا الخرافية الحديثة

يحكى أنه كان بمصر ملك لم يلد وارثا لعرشه . وقد أورثه ذلك حزنا دائما وكان كثيرا ما يصلى للآلهة ويضرع اليها ان تهبه طفلا . فاصغت الآلهة الى تضرعاته ووهبته طفلا . ولما جاءت حداته ليكشفن الستار عن مستقبله قلن : سيكون موته على يد تمساح أو ثعبان أو كلب . ولما سمع الملك ذلك زال عنه السرور وعاد الى الحزن والالم . وبعد تفكير طويل عزم على حفظ الطفل فى مكان حريز حيث لا يصل اليه ضرر أو سوء . وبنى له قصرا بعيدا فى

الصحراء واثثه بأفخم الاثاث وأرسل اليه الطفل تحت رعاية خدم أمناء يحرسونه ويسهرون على راحته . وهكذا نما الطفل وكبر فى هذا القصر بعيدا عن العالم ومافيه

ولكن فى ذات يوم وكان الطفل واقفا على سطح القصر . رأى رجلا يسير فى الصحراء يتبعه كلب فقال للخادم الذى معه :

— « ماهذا الذى يتبع الرجل؟

— « انه كلب »

— « احضر لى واحدا مثله »

ثم ان الخادم ذهب الى الملك واعلمه بالخبر . فقال الملك :

— ابحث له عن جرو « كلب صغير » وخذه اليه حتى لايحزن

ونفذ الخادم امر الملك واشترى للأمير كلبا صغيرا

وشب الامير وترعرع وشعر بالملل والضجر من وجوده وحيدا فى القصر ولما نفذ صبره أرسل لأبيه رسالة جاء فيها :

« ولماذا تحبسنى هنا دائما ؟ ان كان الموت مقدراً لى على يد أحد الحيوانات الثلاثة فدعى أنال فى الدنيا ما أشتهى وليقض الرب مايريد »

واقتنع الملك برأى الامير . فاعطوا للأمير سلاحا وذهبوا معه الى الحدود الشرقية وقالوا له « اذهب حيث تشاء » فسار صوب الشمال وكلبه يتبعه حتى وصل الى ناهارينا

[illegible] هذه البلاد بنتا واحدة بنى لها قصرا عجيبا — شيده على قمة صخرة [illegible] على مائة قدم وكان بالقصر سبعة نوافذ

وقد جمع [illegible] وقال لهم :

« ستكون ابنتى زوجة من يستطيع [illegible] والدخول من احدى النوافذ »

وقد عسكر الامراء حول الصخرة المشيدة عليها القصر ثم أخذوا يحاولون تسلق الصخرة كل يوم ولكن واحدا منهم لم يستطع الوصول الى النافذة لأن الصخرة كانت مرتفعة وعظيمة الانحدار

فى ذات يوم وهم فى محاولتهم مر بهم الامير المصرى وكلبه الامين فرحبوا

« ليس فى بلادك ما أرغب فيه ، لأنى أمير بلاد « بنت » وكل كنوزها ملك لى ، وفوق ذلك فانك بعد ان ترحل من هنا لن ترى هذه الجزيرة مرة أخرى لأنها ستكون حينذاك أمواجا كأمواج البحر »

وانتظرت أربعة أشهر وقد صدقت كلمة الثعبان وأتت السفينة الموعودة وقد حدثنى الثعبان قائلا « وداعاً وداعاً ، اذهب الآن الى وطنك ، أيها الصغير ؛ وتمتع برؤية أطفالك بعد هذا الغياب ، ولا تذكر اسمى إلا بالخير ، هذا كل ماأرغب فيه

وودعته وركبت السفينة بعد ان زودنى بعطايا نفيسة مثل العاج والاخشاب وغيرهما

وقد وصلنا أرض مصر بعد شهرين فى الماء وساحظى بالمثول بين يدى فرعون وأقص له قصتى وأقدم له هدايا الثعبان وسوف يشكرنى الملك فى حضرة عظماء مصر ا . ه

* * *

أما القصة الاخيرة فقد كتبت بعد قصة السفينة السابقة بمدة طويلة

فى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد حكمت مصر أسرة مالكة اشتهرت بميلها الحربى ، وقد أسس أفرادها امبراطورية كانت من السودان جنوباً الى سوريا وناهارينا شمالا ، وكانت هذه الامبراطورية أرضا مجهولة قبل فتحها وامتلاكها ، فكانت هذه الارض مثل أمريكا على عهد الملكة اليزابت

وهذه القصة هى « الامير المقضى عليه بالهلاك » التى سأرويها لك تمثل بعض أدوارها فى ناهارينا والبعض الآخر فى مصر وهى — كما سترى — تمت بأسباب كبيرة الى قصصنا الخرافية الحديثة

يحكى أنه كان بمصر ملك لم يلد وارثا لعرشه . وقد أورثه ذلك حزنا دائما وكان كثيرا مايصلى للآلهة ويضرع اليها ان تهبه طفلا . فاصغت الآلهة الى تضرعاته ووهبته طفلا . ولما جاءت « جداته » ليكشفن الستار عن مستقبله قلن : « سيكون موته على يد تمساح أو ثعبان أو كلب » ولما سمع الملك ذلك زال عنه السرور وعاد الى الحزن والالم . وبعد تفكير طويل عزم على حفظ الطفل فى مكان حريز حيث لايمكن ان يصل اليه ضرر أو سوء . وبنى له قصرا بعيدا فى

الصحراء واثثه بأفخم الاثاث وأرسل اليه الطفل تحت رعاية خدم أمناء يحرسونه ويسهرون على راحته . وهكذا نما الطفل وكبر فى هذا القصر بعيدا عن العالم ومافيه

ولكن فى ذات يوم وكان الطفل واقفا على سطح القصر . رأى رجلا يسير فى الصحراء يتبعه كلب فقال للخادم الذى معه :

ــ « ماهذا الذى يتبع الرجل؟

ــ « انه كلب »

ــ « احضر لى واحدا مثله »

ثم ان الخادم ذهب الى الملك واعلمه بالخبر . فقال الملك :

ــ ابحث له عن جرو « كلب صغير » وخذه اليه حتى لايحزن

ونفذ الخادم امر الملك واشترى للأمير كلبا صغيرا

وشب الامير وترعرع وشعر بالملل والضجر من وجوده وحيدا فى القصر ولما نفد صبره أرسل لأبيه رسالة رجاء فيها :

« ولماذا تحبسنى هنا دائما ؟ ان كان الموت مقدرا لى على يد أحد الحيوانات الثلاثة فدعنى أنال فى الدنيا ما أشتهى وليقض الرب مايريد »

واقتنع الملك برأى الامير . فاعطوا للأمير سلاحا وذهبوا معه الى الحدود الشرقية وقالوا له « اذهب حيث تشاء » فسار صوب الشمال وكلبه يتبعه حتى وصل الى ناهارينا

وكان لحاكم هذه البلاد بنتا واحدة بنى لها قصرا عجيبا ــ شيده على قمة صخرة ساحقة يزيد ارتفاعها على مائة قدم وكان بالقصر سبعة نوافذ

وقد جمع الحاكم أبناء حكام البلد الصغار وقال لهم :

« ستكون ابنتى زوجة من يستطيع منكم تسلق الصخرة والدخول من احدى النوافذ »

وقد عسكر الامراء حول الصخرة المشيدة عليها القصر ثم أخذوا يحاولون تسلق الصخرة كل يوم ولكن واحدا منهم لم يستطع الوصول الى النافذة لأن الصخرة كانت مرتفعة وعظيمة الانحدار

ففى ذات يوم وهم فى محاولتهم مر بهم الامير المصرى وكلبه الامين فرحبوا

به وأعطوا له زاداً هو وكلبه وسألوه:
« من أين أتيت أيها الشاب النبيل » ؟
ولم يرغب فى أن يخبرهم بأنه ابن فرعون مصر فاجاب:
« أنا ابن ضابط مصرى ، وقد تزوج أبى أخرى ، ولما ولدت أطفالا كرهتنى أشد الكره وطردتنى من منزل ابى »
فضموه الى رفقتهم وعاش بينهم . ثم سألهم
« لماذا تقيمون هنا ؟ ولماذا تحاولون تسلق هذه الصخرة ؟ »
فاخبروه عن الاميرة الجميلة التى تعيش فى القصر وكيف ان أول من يصل الى نافذتها يتزوجها
واشترك الأمير معهم ونجح فى الوصول الى الغرض ولما رأته أحبته وقبلته
وفى الحال نما الخبر الى مسامع الحاكم ولما سأل الذى أوصل له الخبر عن الامير الذى ظفر بابنته أجاب الرجل
« هوليس أميرا ، ان هوإلا ابن ضابط مصرى طردته زوجة أبيه من المنزل »
فثارغضب الحاكم وقال « هل تتزوج ابنتى مصرياً متشرداً ؟ ارجعوه الى مصر »
ولما رجع الرسول الى الامير وأعلمه بارادة الحاكم القاضية باقصائه عن ملكه أمسكت الأميرة بيده وقالت « إذا أبعدتموه عنى . فسوف لا أكل ولا أشرب حتى أموت فى أقرب وقت »
فارسل الأب رسلا ليقتلوا المصرى ولكن الاميرة تعرضت لهم وقالت « إن قتلتموه ، ستجدونى ميتة قبل غروب الشمس ، لن أعيش ساعة واحدة بعيدة عنه »
وعلى ذلك وافق الحاكم على كره وتزوج الأمير من الأميرة ووهب الحاكم لهما قصرا وعبيدا وخيرا جزيلا
وبعد مضى زمن طويل قال الامير للأميرة « كتب لى الموت أما بيد تمساح او ثعبان أو كلب »
— « اذا لماذا تحفظ بجانبك هذا الكلب ؟ دعنا نقتله »
— « كلا لن أقتل كلبى الامين الذى نشأ عندى منذ كان جروا صغيرا »
وامتلك قلب الاميرة الخوف على حياة زوجها فما كان يبعد عن عينها لحظة .
وبعدأعوام رجع الأمير وزوجته وكلبه الى مصر حيث أقام الجميع فى سعادة واطمئنان

وفى ذات مساء استولى نوم عميق على الامير وملأت الاميرة أناء لبناً ووضعته بجانبه ثم جلست ترقبه بعينيها الساهرتين ، فرأت حية عظيمة تزحف نحو الامير فامرت الخدم ان يقدموا لها اللبن فاقبلت عليه تشرب منه حتى لم تستطع حراكا

وهنا قتلت الاميرة الحية بعدة طعنات من خنجرها

ثم أنها أيقظت زوجها الذى كانت دهشته عظيمه عندما رأى الحية الميتة بجانبه . وقالت زوجته :

« لقد نجاك الرب من الخطر الاول وسينجيك من الآخرين »

هنالك قدم الامير للآله تضحية وشكرها من أعماق قلبه

وفى يوم من الايام ذهب الامير للتمشى فى أملاكه يتبعه كلبه كالمعتاد ، وفى أثناء سيرهما جرى الكلب فى جهة معينة لغرض خفى عن الامير ولكنه تبعه فى الحال حتى اقتربا من النيل وسار الكلب ناحية الشاطىء والامير خلفه وهنا ظهر للأمير تمساح عظيم أمسك بالامير وقال :

« أنا مقدورك — أتبعك حيثما سرت »

وهنا تنتهى القصة بلا نهاية ولم نوجد بعد بقيـــة لفات البردى ، ونحن تبعاً لذلك لا نعرف ماحدث للأمير وأظن أنه نجا من التمساح بمساعدة الكلب . ثم أنه مات بواسطة الكلب الامين الذى يحبه ويخلص له

وعلى كل حال فنهاية القصة كانت حتما بموت الامير ، لأن المصريين كانوا راسخى الايمان بالقدر وبأنه لا يمكن لانسان ان يحول ارادته عما تنوى فعـــله بالانسان . ولربما يعثر بعض المستكشفين الذين يجوبون أرض مصر بحثا عن آثارها أوراق البردى الباقية وسنعرف وقتئذ ما إذا كان الكلب هو الذى قتل الامير أو ان الآلهه نجته من الاخطار الثلاثة كما أملت بذلك زوجته

هذا مثل من القصص التى كان يستمع اليها الاطفال كل مساء اذا انهكهم التعب من اللعب والجرى وقد تراها بسيطة عارية من كل جمال أو لذة . ولكن لا ريب عندى أنه لما كانت تروى قديما فان عيون الاطفال السود لمعت بنور الاعجاب والدهشة ولا بد ان الساحر الذى يفصل الرأس ويثبته ثانياً كان موضع أعجاب الجميع وان التمساح الذى يتكلم كان يخيل اليهم أنه حقيقة لا مراء فيها ولا جدال

وعلى كل حال لقد قرأت الآن أقدم الاساطير وهى أجداد — ان صح أن نقول ذلك — القصص العظيمة الحاضرة التى تنال اعجاب الاطفال وتدخل السرور لقلوبهم الصغيرة فى كل زمان ومكان

الفصل التاسع

استكشاف السودان

لا توجد رواية أمتع من رواية استكشاف القارة المظلمة « افريقيا » ، لقد استكشفت جزءا جزءا حتى انتهى الامر بمعرفة الاسرار العظيمة التى ظلت مدفونة فى جوفها أعواما لا عداد لها

ولكن هل يمكن تصور طول هذه القصة التى بدأ الفصل الاول منها منذ احقاب لاتعد ؟

ونحن نقرأ هذا الفصل باللغة المصورة الأنيقة ـ التى كان يكتب بها قدماء المصريين ـــ على جدران المقابر فى الجزء الجنوبى من مصر فى مكان يدعى « اليفانتين »

فى الازمنة القديمة كانت حدود مصر الجنوبية تقف عند الشلال الأول حيث تنصب مياه النيل فى سيول عظيمة

ولقد اختفى ذلك الشلال الآن ، لأن المهندسين الانجليز بنوا سداً عظيما فى عرض النهر فى هذه النقطة وتحول الجزء الذى يلى هذا السد من جهة الجنوب الى بحيرة كبيرة . أما فى تلك الايام الغابرة فكان المصريون يعتقدون أن النيل ـ الذى يدينون له بكل شىء ـ ينبع عند الشلال الأول

ومع ذلك فكانوا يعرفون شيئا عن مملكة نوبيا المتوحشة الكائنة خلف الشـــلال . لانه قبل خمسة آلاف سنة كان المصريون يرسلون ـ بين آن وآخر ـ حملات استكشافية الى الارض شبه الصحراوية التى نعرفها الآن باسم السودان

على مقربة من الشلال الاول كانت توجد جزيرة اليفانتين ، ولما كانت المملكة المصرية صغيرة تركت أمر تأديب القبائل النوبية التى كانت تغير على الحدود الجنوبية الى الامراء الذين كانوا يحكمون الجزيرة المذكورة . وحملتهم

مسؤولية حماية القوافل المصرية . فكانوا فى كثير من الاحايين يقودون القوافل داخل الصحراء

وكانت القافلة فى ذلك الوقت تختلف تمام الاختلاف عما تتصوره الآن عند ذكر اسمها من صف الجمال الذى يخترق الصحراء ، نعم لقد وجد الجمل فى مصر قبل بدء التاريخ ولدينا صور تثبت ذلك ولكنه ـ لسبب نجهله ـ اختفى منذ مئات السنين ، فلم يستعمله الفراعنة الامراء واستبدلوا به الحمار الذى كان يحمل لهم العاج والذهب . والابنوس الذى كان تستجلب من السودان

وكان أمراء جزيرة اليفانتين يحملون لقب « حرس الباب الجنوبى » أو « قواد القوافل » ولم تكن قيادة القافلة أمراً سهلا ولم يكن الرجوع بها وبكنوزها مع النجاة من غزو القبائل النوبية متيسراً دائما ، وكم من أمير رحل على رأس قافلة لا ليعود بالكنوز . بل ليترك عظامه وعظام رفقائه بين رمال الصحراء

ويخبرنا أحدهم كيف انه لما علم بموت أبيه فى الصحراء جمع اتباعه وسار جنوبا وخلفه مائة حمار ثم أنزل بالقبائل التى قتلت والده وأبادت قافلته أشد أنواع العقاب وأحضر معه عند عودته لوطنه جثة والده ليدفنها بما تستحقه من الشرف والتقدير

ويمكن قراءة أخبار هذه الرحلات ـ وهى أول مجهود انسانى بذل فى سبيل الاستكشاف ـ على جدران مقابر عظماء المستكشفين القدماء ـ وقد أخبرنا أحد لأمراء المدعو « هيركوف » عن أربع رحلات قام بها الى السودان . ففى الرحلة الاولى كان مع أبيه وقد غاب عن وطنه ما يقرب من سبعة أشهر ، وفى الرحلة الثانيه سمح له أن يذهب بمفرده وقد عاد بقافلته آمنة بعد غياب ثمانية أشهر . وقد توغل فى رحلته الثالثة أكثر من قبل وجمع كميات كبيرة من العاج والذهب حتى أنه اقتضى حملها ثلثمائة حمار ، ولما كانت مثل هذه القافلة مما يغرى نفوس النوبيين ويثير جشعهم فقد اتفق هيركوف مع أحد رؤساء القبائل على ارسال حملة معه لحمايته وهكذا سارت القافلة فى مأمن من طمع رجال القبائل وكيدهم ، الذين لم يفكروا فى مهاجمتها بل أظهروا استعدادهم لمد يد المعونة للقائد المصرى وتزويده بالقطعان والرجال

ولما رجع هيركوف الى مصر محملا بالكنوز سر الملك بنجاحه حتى أنه أرسل اليه رسولا خاصاً فى قارب مملوء بما لذ وطاب اظهاراً لاعجابه وتقديره

وكانت الحملة الرابعة أعظم نجاحاً من سابقيها ، وكان الملك الذى تمت الرحلات الثلاث الاولى فى عهده قدمات وتولى عرشه طفل يدعى « بيبى » وكان فى السادسة من سنى حياته وقد حكم تسعين عاما وهو أطول عهده أمضاه ملك على عرشه

فى العام الثانى لجلوس بيبى على العرش خرج الرحالة على رأس قافلته للمرة الخامسة وقد أحضر معه شيئا آثره الملك أكثر على الذهب والعاج

أنت تعلم أنه لما ذهب ستانلى فى البحث عن أمين باشا اكتشف قوما فى غابات أواسط افريقيا كلهم اقزام يعيشون فى عزلة عن العالمين ويخشون لذلك الغرباء

والظاهر أن أجداد هؤلاء الاقوام كانوا يعيشون فى مكان أقرب للسودان ومصر من المكان الذى عثر عليهم فيه ستانلى ؛ وقد حدث أن أحضر أحد رحالة المصريين قزما من هؤلاء الى قصر فرعون ليسر الملك بشكله الغريب

وكان من حسن حظ هيركوف ان فكر فى احراز قزم يهديه للملك الصغير ليضمه الى لعبه الخشبية ، ولما سمع الملك الطفل عن هذا القزم سر سروراً عظيما وقد كان مجرد التفكير فيه يدخل لقلبه سرورا يصغر بجانبه سروره بالكنز العظيم آلات اليه مع القزم

وأمر بكتابة خطاب لهيركوف يظهر فيه سروره واعجابه ويطلب منه أن يعتنى بالقزم اعتناء عظيما حتى لا يصيبه ضر أو سوء

والخطاب بما فيه من جمل غريبة لا يختلف عن أى خطاب يكتبه طفل ينتظر لعبة جديدة . كتب فرعون الصغير

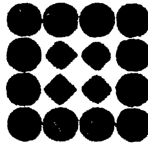
« ترغب جلالتى فى امتلاك هذا القزم أكثر من جزية بلاد بنت واذا أحضرته الى القصر سليما فسيجزيك جلالتى خيرا مما جزى الملك اسا مستشاره بورديد . وهذا المستشار هو الذى احضر القزم فى الايام القديمة »

ثم أرسل الملك اناسا يوافونه بالاخبار عن القزم بعد أن أمرهم بحراسته .

فكانوا يسهرون أمام الغرفة التى ينام فيها ، وينظرون الى وجهه عشرة مرات ليتأكدوا من وجوده حيا سليما . ولا شك ان القزم قد كابد آلاما كثيره من هذه المراقبة فكيف يذوق الراحة مثلا اذا كانوا يوقظونه عشرة مرات ليلا ليتأكدوا انه حى يرزق وانه سليم معافى لربما كان الخطرّ الذى يهدد حيأته من شدة عنايتهم به اعظم مما ينجم لو ترك لنفسه وعلى كل حال فقد وصل هيركوف سليما ومعه القزم ولا ريب ان القزم كان احسن من جميع لعب الملك كما كان احبها الى نفسه

ويعجب الانسان كيف كانت حال القزم وهو يشاهد المدن المصرية العظيمة بقصورها الشاهقة وهل لم يحن يوما الى حريته الكاملة فى موطنه ؟

وقد بلغ افتخار هيركوف برسالة الملك ان أمر بنقشها على جدران قبره حرفا حرفا ، ويمكن قراءتها الى اليوم وهى تخبرنا عن اول حملة استكشافية ذهبت الى السودان . وتدلنا بذلك على قدم عهد « رواية استكشاف القارة المظلة » كما تدلنا على ان الطفل طفل دائما ولو عاش قبل الآن بآلاف السنين وكان على عرش مملكة عظيمة



الفصل العاشر

رحلة استكشافية

منذ ٣٥٠٠ سنة حكمت مصر ملكة عظيمة ، ولم يكن ذلك مألوفا فى مصر ولو ان النساء كن موضع الاحترام والتجلة دائماً ، فقد كانوا يجلون أم الملك ويضعونها فى منزلة تماثل منزلة أب الملك احتراما وتعظيما

وقد جلست على العرش وأدارت شؤونه بمهارة فائقة وتركت خلفها كنزاً من الشهرة والعظمة خلد على مر السنين والاعوام . وهى تعد من بين أعظم النساء فى العالم أمثال الملكة اليزابث والملكة فيكتوريا

وقد بقيت الملكة حتشبسوت عهداً طويلا وهى تشترك مع زوجها فى حكم مصر ، وفى أواخر أيامها أشركت معها فى الحكم ابن أخيها ووريثها ، ولكنها حكمت بمفردها مالا يقل عن عشرين عاما ساست فى اثناءها الرعية بحذق وحكمة

وأهم مايلفت الانظار فى قراءة تاريخها هو هذه الرحلة التى أمرت جزءاً من أسطولها بالقيام بها . ولقد قام المصريون برحلات بحرية فى البحر الاحمر الى أرض تدعى « بنت » أو « الأرض المقدسة » قبل حكم حتشبسوت بقرون ، ويحتمل ان تكون بنت هذه جزءاً من السومال الحالى

ولكن أوقف تيار هذه الرحلات ولم يعد يعرف الناس شيئاً عن هذه الارض اللهم إلا ماتناقلته العامة عاما بعد عام وجيلا بعد جيل أو ماروته القصص القديمة

وتخبرنا الملكة أنها فى يوم من الأيام وكانت تصلى فى معبد آمون شعرت بوحى ينزل عليها من الآله يأمرها بأن ترسل حملة الى تلك الارض المنسية « سمع أمر الاله فى المعبد بأن الطريق المؤدية لبنت ينبغى استكشافها وان الطريق الموصل لأشجار البخور يجب ان تمهد للسير »

وطاعة لهذا الامر جهزت الملكة أسطولا صغيراً ، وملأته بنخبة من الملاحين وكان بينهم مندوب لها . وأبحرت السفن فى البحر الاحمر للبحث عن الارض المقدسة . وقد حملوا فى السفن بضائع مصرية على أمل أن يبادلوها بكنوز بنت .

ونحن نجهل الزمن الذى استغرقه الاسطول فى البحث عن الأرض المجهولة، وقد كان السفر فى البحر فى تلك الازمان محفوفا بالمخاطر والاهوال، ولكننا نعلم ان السفن وصلت آمنة

وأول مارأوا أمامهم منازل البنتيين وكانت مبنية على تلال حتى انه لايمكن الصعود اليها إلا بواسطة سلالم، وكانت ضيقة وملتصقة مثل خلايا النحل

ولم يكن سواد الأهالى زنوجا ولو أنه وجد ذلك العنصر بينهم، وكانوا على العموم يشبهون المصريين فى مظهرهم. لهم لحى طويلة وعلى أجسامهم جلود الاسود وترتدى النساء ملابس صفراء بلا أكمام وتصل أطرافها الى وسط الساق

وقد نزل « نيهسى » نائب الملكة الى البر وصحبه ضابط وثمانية من الجنود، ولكى يبين أنه آت فى حملة سلمية قدم لرئيس البنتيين بعض الهدايا كالحراب والسيوف والخناجر الذهبية، ومثل هذه الهدايا يقدمها المستكشف الاوربى الآن الى رئيس القبيلة الافريقى

وقدم الأهالى من جميع الجهات ليشاهدوا الغرباء وسفنهم وهداياهم فملكتهم الدهشة وسألوا المصريين

« كيف وصلتم الى هذه الارض وهى مجهولة من جميع الناس، هل جئتم عن طريق السماء أم عن طريق البحر المقدس؟ »

وتقدم الى المصريين الحاكم واسمه « باريهو » وامرأته « آتى » وابنتهما وكانت زوجته راكبة حماراً فنزلت عن ظهره لتتأمل الأغراب، ولاشك ان الحمار حمد الاله على ذلك لأن المرأة كانت فى غاية السمن والضخامة. وكذلك كانت ابنتها على صغر سنها

وتبادلوا مع رسول الملكة السلام. وابتدأ المصريون فى العمل. فضربوا خيمة كبيرة ليعرضوا فيها بضائعهم وقد وقفت بجانبها بعض الجنود ليدفعوا من يفكر فى السلب والنهب، وفتح السوق جملة أيام والأهالى تبادل كنوز بلادها ببضائع المصريين ففرغت السفن المصرية ثم ملئت ثانيا بكنوز بنت وهى الذهب والابنوس، والقرود، وجلود النمر والأسد، وأخشاب البخور والصمغ. وعاد مع المصريين على سفنهم كثير من نبلاء بنت ليشاهدوا البلاد التى لم يسمعوا عنها

ولم يكن الرجوع سهلا خاصة وان السفن كانت مثقلة بالكنوز والرجال .
ووصل الاسطول الى طيبة عن طريق قناة توصل بين البحر الاحمر والنيل
وقد سر جميع المصريين بنجاح الحملة فكان يوم وصولها الى طيبة يوم احتفال عظيم اشترك فيه جميع المصريين على اختلاف طبقاتهم ، وخرج الاهالى فى صفوف منظمة يستقبلون الجنود المستكشفين ، وقاد الاسطول المستكشف أسطول ملكى الى رصيف المعبد حيث رست السفن كلها

واستطاع الطيبيون أن يروا الكنوز التى أتى بها المستكشفون ، وكانت دهشتهم عظيمة عندما وقعت أبصارهم على البنتيين ، ولفت أنظارهم خاصة زرافة أحضرها المصريون معهم ، وقد يتساءل كيف حملت الزرافة المسكينة التى أثارت دهشة المصريين برقتها الطويلة وبقع جلدها الجميلة

وقد وضعوا البخور فى المعبد بعد ان وزنته الملكة بنفسها بميزان مصوغ بالذهب والفضة وهكذا انتهت الرحلة بالنجاح والفوز ، ولكنها لم تكن كل أغراض الملكة بل ولم تكن نصفها

كان والد الملكة قد ابتدأ فى تشييد معبد فى مكان يبعد عن طيبة عدة أميال على مقربة من اطلال معبد متخرب ، ولكن الموت حال بينه وبين اتمامه فاخذت الملكة على عاتقها هذه المهمة وابتدأت فى العمل وقام البناء وكان على طراز جديد مخالف للمعابد المصرية التى سبقته

ففى جهته الامامية بنوا على رمال الصحراء طبقات مدرجة من الأرصفة كل واحدة تعلو على سابقتها ومحدودة على الجانبين بأعمدة مرتفعة ويؤدى ذلك البناء المدرج الى الحجرة المقدسة المنحوتة فى الصخر الشاهق

وكانت قد شيدت المعبد ليكون « جنة آمون » وهو الرب الذى أوحى اليها بارسال الاسطول للاستكشاف ، وغرست حول المكان المدرج السابق الذكر شجر البخور الذى أحضرته من بلاد بنت ولكى يهيئوا له الحياة المستديمة فقد حفروا بالقرب منه بئراً فى الصحراء لتروى منها الاشجار

وأمرت الملكة بنقش قصة الرحلة على جدران المعبد فى شكل صور مختلفة تمثل الرحلة من مبتداها الى منتهاها

فانت تستطيع أن ترى السفن وهى تجاهد أمواج البحر فى سبيل غرضها المجهول ومقابلة المصريين بالبنتيين ثم المبادلة التجارية ونقل المواد الى السفن ، ثم

المواكب العظيمة من الجنود المصرية التى استقبلت رجال الاسطول المنتصر

ولم تترك صغيرة إلا صورتها وبفضل دقتها ودقة حفاريها علمتنا كيف كانت حياة البحارة وأعمالهم فى تلك الازمان ، وكيف كانت المعاملات التجارية فى الاراضى الغريبة ، وكيف كانت تعيش القبائل فى البلاد المتوحشة

والعادة الآن أن الرحالة يضمن ملاحظاته عن البلاد التى جابها ويجمع صوراً عن أغرب المشاهدات فيها فى مجلد كبير ينشره بين مواطنيه ، ولكن واحداً منهم لم ينقش قصته كما نقشتها الملكة حتشبسوت وواحداً منهم لم يزين كتابه بصورة بلغت من لدقة والجمال مابلغته هذه الصور التى ظهرت للوجود حديثاً بعد ان طويت قرونا عدة

وقد تركت الملكة بعد موتها غير المعبد وقصة الرحلة مايكفى وحده لتخليد ذكراها على مر العصور

وهى تخبرنا كيف أنها كانت جالسة يوما فى قصرها تفكر فى خالقها حين لاح لها فجأة ان تشيد مسلتين أمام معبد الكرنك — وقد أمرت بتنفيذ الفكرة وفى الحال سافر مهندسها الماهر سن مت إلى أسوان وقطع من حجر الجرانيت مايكفى لتشييد المسلتين وأتى به عن طريق النيل

ويبلغ ارتفاع مسلة كليبوطرة المقامة على ضفاف التيمز ثمانى وستين قدما ونصفا ، ونحن نظن أن مثل هذه الكتلة لاتستطيع صنعها يد بشر . ولقد تكلف مهندسونا الشيء الكثير فى نقلها الى هنا وإقامتها حيث هى على شاطيء التيمز

أما هاتان المسلتان اللتان شيدتهما حتشبسوت فلايقل ارتفاع الواحدة منهما عن ثمانية وتسعين قدما ونصف وتزن كل منهما ثلثمائة وخمسين طنا ، ومع ماوصفنا فقد استغرق المهندس المصرى فى نقل الحجارة من أسوان الى طيبة وفى صنعهما سبعة أشهر !!

ولا تزال أحداهما باقية الى الآن فى الكرنك وهى أطول مسلة فى المعبد . أما الاخرى فقد تهدمت وتكومت اطلالها بجانب المسلة الباقية وهما تدلان دلالة واضحة عما كان عليه المصريون من التقدم العقلى والفنى فى عهد تشييدهما

ولربما كان الاله الذى تعبده الملكة والذى كانت تفكر فيه فى قصرها — قريبا من قلب خادمته حقيقة

الفصل الحادى عشر

الكتب المصرية

إن لم يكن المصريون هم أول من دون اراءه بالكتابة - وبعبارة اخرى أول من اخترع الكتب فقد كانوا بلا ريب بين أوائل من اخترعوا هذا الفن وإن احد كتبهم — المملوء بالحكم والنصائح يسديها أب لابنه — لهو اقدم كتب الدنيا جميعا

ونحن كثيرا ما نستعمل كلمتين جديرتين بأن يذكرانا دائما بفضل المصريين القدماء اولهما « The Bible » ومعناها الكتاب والثانية « Parer » ومعناها الورق ، ونحن ان كتبنا الأولى فاننا نستعمل كلمة من الكلمات الاغريقية التى اطلقت قديما على النبات الذى اتخذ منه المصريون كتبهم «يعنى ورق البردى» وإذا كتبنا الكلمة الثانية فاننا نستعمل اسما آخر - وهو الاشيع لنفس النبات لأن المصريين كانوا أول من صنع الورق وقد استعملوه قرونا قبل أن يعرفه الناس . ومع ذلك فلو رأيت كتابا مصريا قديما لعجبت من شكله ونظامه ولعلمت أنه يختلف كل الاختلاف عن كتبنا الجميلة التى نمسكها بقبضة يدنا ونطالعها

كان المصرى إذا اراد أن يصنع كتابا جمع سيقان البردى الذى ينمو فى بعض جهات القطر التى تكتنفها المستنقعات ، وهذا النبات ينمو لارتفاع اثنى عشر قدما وقد يبلغ خمس عشرة قدما ، اما سمك سيقانه فلا يقل عن ست بوصات . وكان يقشر الجزء الخارجى من الساق ، ثم يقطع الجزء الباقى قطعا طوليا إلى طبقات رقيقة بآلة حادة . وتوضع هذه الطبقات لجانب بعضها حتى تتصل أطرافها ثم يراق الصمغ على سطحها الاعلى ثم يأتى بطبقة أخرى ويضعها عرضا على الجزء الاعلى من الطبقة الأولى ، ثم تضغط الطبقتان وتجففان

ويختلف اتساع العرض تبعا للغرض الفنى التى صنعت الأوراق له . واعظم عرض عثر عليه للان لا يزيد على سبع عشرة بوصة ومعظم النسخ الاخرى أضيق من ذلك

فاذا انتهى المصرى من صناعة ورقهفانه لايجمعه ملازم ويغلفه كا نفعل الآن ولـكنه يوصل الورق من الطرف الأعلا ثم يكتب فان احتاج لورق الصق ورقة بورقة وهـكذا . ويلف الجميع ان اراد ان يسير وكتابه فى يده . وعليه فالـكتاب كان لفة من الأوراق قد تبلغ ـ احيانا ـ عدة اقدام طولا . وعندنا فى دار الآثار البريطانى كتاب مصرى طوله مائة وثلا ثون وخمس اقدام ونحن نعجب من الـكيفية التى كانوا يحملون بها امثال هذا الـكتاب

ولـكن الأغرب من الـكتاب نفسه هو ما يتضمنه من الـكتابة التى تعد بحق أغرب الـكتابات كلها وربما أجملها أيضا ، ونحن نسميها « الهيروغلفية » ومعناها « النقش المقدس » وهى عبارة عن صور صغيرة : وكان المصريون فى اول عهدهم بالـكتابة يرمزون للكلمة التى يرغبون فى التعبير عنها بصورة المعبر عنه ، وبعد ممارسة ذلك الفن عهدا تمـكنوا من وضع حروف هجائية ووضعوا علامات تمثل مقاطع الكلمات ولم تـكن هذه العلامات إلا صوراً صغيرة . فمثلا كانت احدى علاماتهم للحرف P وجه نسر وعلا ماتهم للحرف م أسدا

فاذا تصفحت كتابا مصريا مـكتوبا بالهيروغليفية رأيت سطورا من الطيور والحيوانات والزواحف والرجال والنساء والقوارب وجميع الأشياء الأخرى تسير فى الصحيفة

وكان إذا أراد المصريون أن يخلدوا كتابتهم تركوا اوراق البردى الواهية وكتبون فى كتب مختلفة اختلافا تاما عن البردى وأوراقه

لا بد أنك سمعت عن النصائح المنقوشة على الاحجار ، وفى الواقع أن معظم الـكتابة المصرية التى تخبرنا عن الفراعنة واعمالهم منقوشة على الاحجار . نقشت فى وضوح وعمق على سطوح المسلات وجدران المعابد وكانت العادة ان الملوك إذا رجعوا من احدى الحروب نقشوا وصف المعارك وما لاقوه فى الذهاب والاياب على جدران اشهر المعابد فى أيامهم او على الاعمدة المقامة فى تلك المعابد حيث بقيت الى الآن وهى على حالتها الأولى ليقرأها الباحثون

وكانت إذا نقشت الهيروغليفية على الحجارة طبغت الخطوط بالالوان

لمختلفة حتى ان الكتابة كانت تظهر مثل لهب من جميع الالوان الخفيفة وتظهر الجدران كما لو كانت مغطاة بستائر ذات الوان جميلة

ولقد نصت الالوان الآن ولكنك تستطيع ان تشاهد اثرها واضحا فى بعض المعابد والقبور . ومن ـ شرحى هذا ـ تستطيع ان تتصور ماكانت عليه هذه لكتابة من الجمال والرونق

وكان الكتبة والحفارون عالمين بمكانة فنهم من الجمال والحسن لدلك لم يألوا جهدا فى ابرازه فى شكل جميل جذاب

وبلغ اعتناؤهم بالجمال انهم كانوا إذا وجدوا ان الصور التى تتكون منها لكلمة أو الجمل تظهر قبيحة المنظر بسبب اتصالها وترابطها حذفوا الصور التى تقبح منظر الصفحة وضحوا بصحة هجاء الجمل فى سبيل ابرازها فى نسق جميل

ونحن نخطىء احيانا فى هجاء بعض الكلمات ولكن ليس الداعى فى ذلك ان نكونها فى صورة جميلة طبعا ! والآن نعود ثانيا إلى لفات البردى ، ولنفرض انه فرغ من صناعتها وانها اصبحت مهيأة للكتابة ونحب أن نعلم كيف كان الكاتب يقوم بعمله

اهم ادواته صندوق خشبي طويل وضيق جدا ، وهو يختلف عن ريشة المصور وهوعبارة عن كتلة خشبية فى وسطها تجويف طويل . وحوله تجويفان أو ثلاثة أقل غورا واضيق من التجويف الأول . ويوجد فى هذا التجويف اقلام قلائل مصنوعة من قصب دقيق مرضوضة من نهاياتها كالفرشاة ويوضع فى التجاويف الأخرى حبر اسود وهو يستعمل فى معظم الكتابة وأحمر وتكتب به بعض كلمات . وربما أضاف الكاتب لونين آخرين لتكون الكتابة فى أبهى حلة ويجلس الكاتب القرفصاء ويغمس قلمه القصبي فى الحبر ثم يكتب

وهو إذا كتب اجزاء مهمة فى الموضوع استعمل لونا زاهيا

والآن نستطيع أن نفهم ان الكتابة بالصور لم تكن أمرا سهلا خاصة وانه لم لم يكن مع الكاتب إلا قلم من البوص

ولكن على مرور الزمن تطورت الكتابة واخذت فى النقصان والصغر حتى اكتفوا اخيرا ان يرمزوا بعلامات تدل على « المعبر عنه » بدلا من رسم صورته

وهكذا اصبحت الكتابة الهيروغليفية سهلة التدوين . ككل الكتابات

وقد كتبت كثير من المؤلفات باللغة الجديدة وكانوا يسمونها اللغة «الكهنوتية» أو الهيراطيقية ولكن جزءاً كبيرا من الكتب العظيمة كانت تكتب باللغة القديمة

ولقد ترك المصريون فى لفات البردى عصارة افكارهم ومشاعرهم وخلاصة تجاريبهم . فمن النصائح الحكيمة إلى القصص الخرافية ـ وقد أوردنا بعضها ـ الى اساطير الآلهة وكذلك وصف الاسفار والرحلات وغير ذلك بما ليس له حصر

وأهم كتاب فى هذه المخلفات يختص بالديانة المصرية . واسمه كتاب الموتى والبعض يدعوه الانجيل المصرى . وليس هذان الاسمان صحيحين وهو ـ مهما كان ـ لا يشبه الانجيل . ولقد سماه المصريون « فصول عن البعث » والسبب فى وضعه هو اعتقاد المصريين بأن من يقرأ نصائحه يأمن اخطار الدنيا الآخرى

وكان الكتبة ينسخون من الكتاب اعدادا كثيرة يحفظونها كرأس مال احتياطى . وكانوا يتركون فى بعض الصفحات مسافات خالية وهى التى تشمل أسماء الأموات الذين يشترون الكتاب فى اثناء حياتهم

وكان إذا مات فرد ـ لم يكن قد اشترى الكتاب ـ يذهب احد اهله الى كاتب ويشترى نسخة من كتاب الموتى ثم يملأ الامكنة الخالية باسماء الميت . وينبغى دفن الكتاب مع الميت فى قبره حتى إذا اعترض طريقه الى السماء حيات أو أرواح نجسة استطاع ـ بما هو مكتوب فى الكتاب ـ ان يدفع شرهم وينحيهم عن طريقه وان قامت فى طريقه العقبات كوجود بعض الابواب التى يتعذر عليه فتحها ويلزمه المرور منها لمواصلة السير أو لوجود بعض الانهار التى لا يمكنه عبورها فانه بعد تلاوة الكلمات السحرية الموجودة فى الكتاب يتمكن من تذليل كل هذه "صعاب

وقد كتبت بعض هذه النسخ باتقان وجمال بلغا حد الكمال وشرحت بصور صغيرة هى غاية فى الدلالة والتنسيق ، وكلها تمثل نواحى مختلفة من حياة العالم الثانى ومن هذه الصور تمكنا من معرفة عقائد قدماء المصريين عن الحساب بعد الموت وعن السماء

ولكن باقى النسخ مكتوب باهمال لان الكتبة كانوا يعلمون أن مصير الكتب ـ التى يسهرون فى كتابتها ـ الدفن مع الميت حيث لا يمكن أن تقع عليها عينا انسان وعليه فلم يعتنوا فى كتابتهم ولم يروا بأسا فى وجود غلطات

كثيرة بل كان يبلغ الاهمال بهم أحيانا الى حذف بعض فصول برمتها من الكتاب ولم يكن يدور بخلدهم أنه بعد موتهم بآلاف الاعوام ستنبش القبور ويستولى على ما فيها ويظهر اهمالهم للملأ

وما لا ريب فيه أن كثيرا مما يتضمنه هذا الكتاب سقط وسخف ـ وهى أبعد ماتكون عن تعاليم الانجيل النبيلة ـ وسأنقل للقارىء فصلا موجزاً ليحكم بنفسه :

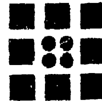
« فصل فى دفع خطر الثعابين »

كان المصريون يعتقدون أن الميت لا يحتاج للنجاة من الثعبان اذا اعترضه فى طريقه الى السماء إلا أن يذكر هذه الجملة وهى كفيلة بأن تحل قوى الثعبان ليتمكن الميت من السير بأمان . وهذه الجملة هى

« تحية أيها الثعبان ، لا تتقدم من مكانك ، قف حيث أنت وسوف تأكل جرذا يكرهه رع « رب الشمس » ـ وسوف تمضغ عظام قطة قدرة »

هى حماقة ليس الا ، وتوجد فصول أخرى لا تقل عن الفصل السابق غباوة وبلاهة وانى أعجب كيف كان أناس عقلاء كالمصريين يعتقدون فى هذه الخزعبلات

ولكن بجانب هذا السخف بجد فصولا تحوى أفكاراً غاية فى السمو والنبل كأنما أوحيت اليهم من الله نفسه . واهم هذه الافكار هو اعتقادهم بان الانسان يحاسب على أعماله فى الدنيا ـ بعد الموت ـ وأن الآلهة لا ترحم فى الآخرة الا الذين عدلوا ورحموا وتواضعوا وخضعوا لاوامرها



الفصل الثانى عشر

المعابد والقبور

ان السائح الذى يجوب بلادنا انجلترا لمشاهدة الآثار القديمة لا يجد أمامه إلا كنائس وحصونا فهنا الكاتدرائيات الفخمة وهنالك القصور العظيمة التى كان يسكنها الملوك والأمراء والتى كانوا يتخذون منها قصوراً تأويهم وحصونا تدفع عنهم شر أعدائهم

ولكن الامر يختلف اذا كان هذا السائح يجوب أرض مصر

يوجد عدد وافر من الكنائس أو بالحرى المعابد وهى غاية فى الابداع والفخامة أما الحصون والقصور فلم يبق منها شىء وبدلا منها توجد القبور . وفى الحق أن مصر بلد المقابر والمعابد

لانه لما كان الشعب المصرى عظيم التدين يخص آلهته بكل تبجيل وتقدير ، فقد اكثر من تشييد المعابد لها

ولكن ما السبب فى تلك العناية الموفورة التى وجهوها الى بناء القبور ؟

السبب فى ذلك ـ وسنشرحه شرحاً وافياً فى فصل قادم ـ أنه لم يوجد شعب آثر الحياة الاخرى على الحياة الدنيا كالشعب المصرى القديم

فهم كانوا يبنون منازلهم وقصورهم بأخف المواد كالخشب والصلصال علما منهم بأن تعميرهم فيها لن يطول . أما قبورهم أو المساكن الأبدية كما كانوا يسمونها فقد شيدوها باعتناء ودقة حتى خلدت على الدهر

وسأصف لك الآن معبداً وهو فى أكمل صورة ـ أى كما كان وقت تشييده . والناس يقصدون مصر الآن من جميع أنحاء الدنيا ليشاهدوا خرائب تلك المعابد وهم يعدونها ـ كما هى الآن ـ من أغرب ما خلف العالم القديم بل هى تعد من غرائب فن البناء فى الوقت الحاضر

وهى الآن لاتزيد عن أن تكون الهيكل العظمى للمعابد الأصلية ولا تدل على الاصل القديم الا بمقدار ما يدل الهيكل العظمى على الجسم الانسانى فى جماله وحياته .

هب الآن أننا قادمون نحو مدخل معبد عظيم رهيب أن المعبد لا يزال مقراً لرب من الأرباب تعبده آلاف من البشر

فاذا تركنا الشوارع الضيقة المؤدية للمعبد نجد أنفسنا واقفين فى طريق ممهدة تمتد أمامنا مئات الاقدام وعلى جانبى ذلك الطريق يوجد صفان من تماثيل أبى الهول ذات أجسام الاسود ورؤوس البشر أو أى مخلوق آخر

بعض أباء الهول لها رؤوس انسان مثل أبى الهول الكائن بجانب الهرم ، ولكن التى توجد على جانبى طريق المعبد يكون لها فى الغالب رأس كبش أو رأس ابن آوى

وفى نهاية الطريق يرى السائر برجين عظيمين بينهما مدخل المعبد الكبير ، وأمام كل برج من برجى المعبد تقف مسلة عظيمة منحوتة من حجر الجرانيت وهى أشبه شكلا بمسلة كليوباطرة المقامة على ضفاف التيمز ، وكل مسلة منقوشة نقشاً بديعاً ومكتوب عليها باللغة الهيروغليفية والصور مطعمة بالألوان الجميلة الزاهية

وقمة المسلة مصوغة بالذهب بما يجعلها تتلألأ تحت أشعة الشمس المرسلة

وبجانب كل مسلة يوجد تمثال أو تمثالان للملك الذى أمر بتشييد المعبد . والتمثال يصور ملك مصر جالساً على عرشه واضعاً على رأسه تاج مصر المزدوج الأبيض والأحمر

وانك حين تنظر الى وجه الملك تعجب كيف استطاعت أيد بشرية أن تنحت من الأحجار الصماء وجهاً ناطقاً بالغاً حد الكمال فى تمثيل مقاطع الوجه مثل هذا

ولا يزال الى الآن بقية تمثال رمسيس الثانى قائما أمام أحد معابد طيبة ، ولما كان هذا التمثال جديداً كان ارتفاعه سبعا وخمسين قدماً وكان وزنه ألف طن وهو أعظم كتلة حجرية أخرجتها يد البشر ، وعلى كل برج مثبت

عمودان فى نهاية كل منهما راية مزينه بالألوان

أما جدران البرج فكلها صور تمثل الملك فى أثناء حروبه ، فهنا تراه مطارداً فى عربته وهنا تراه ممسكا ببعض الأسرى من شعورهم ورافعا سيفه ليقتلهم

وهذه الصور تظهر الملك قوياً وأعداءه مستضعفين اما أسرى وإما هاربين

ووجهة المعبد مزينة بالألوان مزدانة بالنقوش — وهى على العموم بما فيها من نقوش ورموز تاريخية تاريخ تصورى لحكم الملك

نحن الان واقفون أمام باب المعبد المصنوع من خشب الأرز والذى لا تستطيع أن تتبينه لما عليه من النقوش والصور المزينة بالألوان

فاذا دخلنا من الباب رأينا أمامنا بهواً عظيم الاتساع وهو يشبه الدير وسقفه مقام على أعمدة طويلة منقوشة ، وهى منحوتة على قد النخلة وشكلها ، وفى وسط المكان يرتفع عمود عظيم منقوش على سطحه أعمال فرعون وصوره وهو يقدم الهدايا لرب المعبد ، وهذا العمود مزين بالاحجار الكريمة

وفى نهاية البهو يرى الداخل برجين بينهما باب ، وهذه الوجهة تشبه الوجهة الخارجية وهى تؤدى الى بهو آخر ؛ وإذا اجتزت هذا الباب وجدت نفسك فى بهو آخر يكاد يكون مظلما لأن النور لايصله الا من الباب - السابق الذكر ومن طاق ضيق فى السقف ، وهذا البهو هو أوسع حجرة شيدتها يد البشر

وفى وسط المكان يوجد صفان من الأعمدة التى ترفع السقف ، وهى تكون صحن البهو وحول ذلك ممرات ضيقة مرفوعة سقوفها على أعمدة صغيرة عديدة متراصة

والأعمدة التى تكون صحن البهو ترتفع فوق رأسك سبعين قدما فى الهواء ورؤوسها منحوتة على غرار زهرة مفتحة . ومساحة قمتها تسع مائة رجل

كيف أحضروها الى هذا المكان وكيف صنعوها على هذا الارتفاع العظيم ؟

وكانت الاعمدة مغطاة بالنقوش والصور كما قدمنا وكذلك كانت جميع الجدران المحاطة بالبهو ، ولكن ليست هذه الصور تمثل الحروب لأن ذلك المكان أقدس من أن يرسم فيه أمثال هذه الصور

بدلا من ذلك ترى صورة الآلهة وصور الملوك تهدى اليها الهدايا وهى

كثيرة متعددة لان كل هدية كان يقدمها الملك كانت تنقش صورته وهو يهديها

وأخيراً نصل « الى قدس الاقداس » وهى حجرة أصغر حجما وأخفض سقفاً من البهوين السابقين والنور لا يجد اليها منفذاً وعلى ذلك فهى فى ظلام دامس ولولا شعاع المصباح الذى يمسكه الكاهن وهو يقودك لما استطعت التقدم خطوة واحدة

هنالك يوجد المقام المقدس وهو مأوى يسكنه رأس الآله . وهذا المقام منحوت من الجرانيت ، وله ابواب من خشب الارز وهى مغلقة دائما

ولو استطعنا فتحها لوجدنا تمثالا خشبياً كهذا الذى رأيناه محمولا محتفلا به فى شوارع طيبة ، وعليه أفخر الثياب وحواليه الهدايا والمأكولات والمشروبات وما ذلك الا لأنه الخالق لكل ما وصفنا لك من عظمة هذه الامة القديمة

ويوجد جيش من الكهنة يقومون بخدمته ليل نهار ، يزينونه بالنقوش ويقدمون له الطعام والشراب والضحايا يترنمون بمدحه وعبادته

وخلف المعبد توجد مخازن مفعمة بالحبوب والفواكه والنبيذ وهى كفيلة بتموين مدينة كبيرة فى أثناء حصار عصيب . والاله ـ فوق ذلك ـ مالك من أغنى الملاك لهمن الاراضى الواسعة ما ليس لنبيل أوعظيم ، ويوازى دخله دخل فرعون نفسه ، وله جيشه الخاص الذى لا يأتمر الا بأمره وكذلك أسطول فى البحر الأحمر ويحمل اليه البخور من الاراضى الجنوبية . وأسطول آخر فى البحر الابيض يورد اليه الملابس وخشب الارز من لبنان

وطبيعى أن يكون الكهنة فى منزلة من القوة والسلطان دونها جميع الامراء والنبلاء ، بل لقد كان فرعون نفسه لا يقدم على اغضابهم ولنفوذهم الذى قد يهز أركان عرشه وهكذا كان المعبد المصرى منذ ثلاثة آلاف سنة أى فى الوقت الذى كانت فيه مصر سيدة الارض . ومع ماوصفت لك من جمال المعابد وفخامتها فان ذلك كله لا يعد شيئا لو قابلناه بجمال القبور وعظمتها

لقد دفع المصريين اعتقادهم الراسخ بالحياة السفلى الى تشييد قبور خالدة تحفظ جسادهم على مرور الاعوام والاجيال حتى أن الملوك الذين حكموا القطر

قبل بدء التاريخ حفروا لأنفسهم قبورا حصينة فى باطن الارض ووضعوا فيها من الاثاث والاطعمة كل ماظنوا أنهم يحتاجون اليه فى حياتهم السفلى

ولكن أعظم مثل للقبر المصرى القديم فى العظة والفخامة هو مابنى فى عهد خوفو الذى خبرتك عنه فى خرافات زاراآمانخ وديدى

على مقربة من القاهرة — عاصمة مصر فى الوقت الحاضر — يرى أعظم ماترك السلف من الابنية ، ترى الاهرام — قبور ملوك مصر القدماء — وان من يشاهد هذه القبور يدرك ماكان البناؤون المصريون عليه من المقدرة قبل الميلاد بأربعة آلاف من السنين

وأكبر هذه الاهرام هرم كيوبس وهو خوفو الذى ورد اسمه علينا فى الخرافات السابقة ولم يشيد مثله فيما مضى قبل زمن تشييده ولابعد ذلك حتى أيامنا هذه . ويقدر ارتفاعه بأربعمائة وخمسين قدما ! وقد هدم جزء من قمته يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما ويبلغ طول الجانب الواحد من جوانب قاعدته خمسا وستين قدما ، أما مساحة الارض الذى يشغلها فيقدر باثنى عشر فدانا . وهذا اتساع حقل جميل

ولكى أقرب الى ذهنك صورة من عظمته أقول أنه لو استعملت أحجاره للبناء لكفت لتشييد مدينة تسع سكان ابردين ، ولو قسم كل حجر من أحجاره الى أحجار مكعبة لايزيد ضلع الواحد منها عن قدم ؛ ثم رصت هذه الاحجار فى خط ، لتجاوز هذا الخط نصف محيط الكرة الارضية . ولكن الصعوبة فى كسر الاحجار لأن معظمها يزن من أربعين الى خمسين طنا

وجميع أحجار الهرم متلاصقة بعضها ببعض بحيث لايمكن ادخال مايساوى سمك صفحة كتاب رقيقة بين حجرين

وفى داخل ذلك الجبل العظيم توجد ممرات تؤدى لحجرات صغيرة ومن هذه الحجرات « حجرة الملك » وفيها كان يرقد الملك أعظم بناء عرف من بدء الخليقة ؛ وكانت الممرات مسدودة بكتل حجرية عظيمة حتى لايزعج الملك فى رقدته متطفل

ولكن رغم كل هـــذه الحوائل وجد اللصوص طريقهم الى حجرة الملك وسرقوا التابوت وتركوا جثة الملك العظيم تذروها الرياح ، كما قال الشاعر بيرون « لم يبق من كيوبس ولا قبضة تراب »

أما باقى الاهرام فاصغر من الاول وأقل ضخامة منه ولكن مما لاريب فيه أنه لو لم يوجد الهرم الاكبر لعدت من عجائب الدنيا

ويوجد بجانب الهرم الثانى تمثال أبى الهول وهو تمثال ضخم له جسم أسد ورأس انسان ، ونحن لانستطيع ان نجزم بمعرفة ناحته ولا السر فى تصويره على هذا الشكل . وهو رابض فى مكانه منذ أجيال عديدة كأنه يحرس قبور الفراعنة

ويقدر ارتفاعه بسبعين قدما وطوله بمائتى قدم

وهو أغرب تمثال نحتته يد الانسان

وبعد مرور أعوام عدة تعب الملوك من تشييد الاهرامات وتغيرت عاداتهم فبدلا من ان يرفعوا القبور إلى هذا الارتفاع العظيم حفروها فى الأرض لحفظ رفاتهم . وعلى ضفاف النيل الغربية عند طيبة توجد هذه المقابر وهى لتعددها تظهر فى التلال مثل خلايا النحل . وجدان هذه القبور مزينة بالصور ومنقوشة بالهيروغليفية ، وتمثل صورها حياة الملك فى مظاهرها المختلفة

ففى صورة تراه جالساً وبجانبه زوجته ومن حولهما الخدم وهم يقومون بأعمالهم المختلفة ، يرون الارض ويبذرون البذور يجمعون الكروم أو يصنعون النبيذ ، وفى صورة أخرى ترى صاحب القبر وهوذاهب إلى السوق يشترى حوائجه

وجملة القول أنه بعد التأمل فى هذه الصور يمكننا أن نعرف أسرار الحياة المصرية فى ذلك العهد ، وفى الواقع أن معظم معلوماتنا عن المصريين القدماء وأحوال معيشتهم مستمدة من هذه القبور وأمثالها

وفى أحد الوديان الضيقة المسمى « وادى الملوك » دفن كل الفراعنة المتأخرين تقريباً . ومقابرهم الآن من أهم مايذهب السائح من أجله إلى طيبة

وسوف أصف لك أجملها وهوقبرسيتي الأول والد رمسيس الثانى السابق الذكر

تدخل الباب الصخرى فتجد نفسك فى ظلام . ولا تترك ممرات إلا لتسير فى أخرى حتى تصل الى الحجرة الرابعة عشرة « منزل أوزوريس الذهبى » . وهى على بعد أربعمائة وسبعين قدما من المدخل ، وفيها يرقد الملك فى تابوته الجميل وجميع الجدران والاعمدة منقوشة ومزينة بالألوان والصور

وبعض هذه الصور — وهى المرسومة على الاعمدة — تمثل الملك وهو يقدم الهدايا للآلهة أو تصور الآلهة وهى ترحب بالملك . أما الصور التى على الجدران

فهى فى غاية الغرابة . لأنها تمثل رحلة الشمس . فى مملكة الدنيا السفلى ، وتبين جميع الصعوبات التى تلقى الروح فى اثناء سياحتها فى الشمس . والروح الشريرة تتبعها الحيات والوطاويط المسلحة بالحراب . وهى تسوم سىء الحظ الذى يقع تحت رحمتها أقسى أنواع العذاب فتمزق قلبه وتقطع رأسه او تضعه فى قدر تغلى أو تعلقه من قدميه وتترك رأسه يتدلى فى بحيرة من نار

وتدخل الروح ـ اذا تخلصت من هذه الاخطار ـ فى حقل الرحمة ـ حيث تجنى ثمار أفعالها الطيبة فى الدنيا . وحيث تنال السعادة الابدية ، وفى نهاية الرحلة يصل الملك وترحب به الآلهة فى « مسكن السعداء » حيث يعيش عيشة اله فى حياة أبدية

والتابوت الذى كان يرقد فيه سيتى موجود الان بدار الاثار بلندن ولما اكتشف كان فارغا ولم يعثر على جثة الملك حتى سنة ١٨٧٢ اذ وجدها بعض لصوص المقابر المحدثين (نعنى المستكشفين) مخفية فى حفرة عميقة بين الصخور ومعها جثث ملوك آخرين

وهو الآن فى دار العاديات بالقاهرة وتستطيع أن ترى وجهه وملامحه ولم تتغير كثيراً عما كانت عليه لما حكم قبل الان بثلاثة آلاف ومائتى سنة

وفى هذا المتحف يمكن رؤية تحتمس الثالث أعظم ملك حربى مصرى ورمسيس الثانى . مضطهد بنى اسرائيل ومنفتاح الذى كفر بدين موسى ورفض طلبه بخروج بنى اسرائيل من مصر والذى غرق فى البحر الاحمر وهو يطارد عبيده الفارين

كم يكون عجيبا لو استطاع واحدنا أن يرى الوجوه الحقيقية لابطال قصة الانجيل

لقد كان المصريون يعتقدون أنه اذا مات انسان تنتقل روحه الى حياة أخرى وهى تحب أن ترجع الى جثمان أرضى ويسرها أن تستقر فى نفس الجسم التى كانت فيه قبل طلوعها إلى العالم الثانى . وان هدوء الروح واستقرارها فى العالم الثانى يتوقفان بطريقة ما ، على حفظ الجسم سليما

وطبيعى بعد ذلك ، أن يوجهوا عنايتهم الى تحنيط الجثث . فكانوا ينقعونها أياما فى قار وطيب حتى تحنط ثم يلفونها فى طبقات كثيفة من الكتان

بهذه الطريقة بقيت الجثث دون أن يصيبها التلف أو التغير . وكأنما كتب لها ان تسكن المتاحف وان يراها من كانوا همجا يسكنون الغابات حين كانت مصر امبراطورية عظيمة ذات قوة وسلطان

الفصل الثالث عشر

قدماء المصريين والسماء

أريد — فى هذا الفصل — أن أشرح لك ماكان يظن قدماء المصريين عن السماء ماهى السماء وأين توجد؟ وكيف يسكنها الناس بعد الموت وأى نوع من الحياة يعيشون فيها؟ وقد كان لهم أفكار غريبة عن كل ذلك

كانوا يعتقدون مثلا أن السماء الزرقاء صحن حديدى يشمل الفضاء الموجود فوق الدنيا، وأن هذا الصحن مرفوع على جبال فى أربعة أركان هى الشمال والجنوب والشرق والغرب. والنجوم مصابيح معلقة فى بطن القبة العظيمة وكانوا يتصورون ان حول العالم يجرى نهر عظيم، وهو الذى تسبح فيه الشمس يوما بعد يوم فى سفينتها مرسلة الانوار للدنيا، ونحن نستطيع رؤيتها فى أثناء سيرها من الشرق الى الغرب أما بعد ذلك فيجرى النهر خلف جبال شاهقة تحجب الشمس عنا، وهنالك تبدأ رحلة الشمس فى عالم الظلام

ويتبع الشمس فى سيرها القمر وهو يبحر فى سفينة خاصة وتحرسه عينان لاتغفلان عنه أبداً، ومما يدعو لهذه الحراسة أن القمر يصطدم كل شهر بعدو لدود يظهر له فى شكل خنزير، فى بحر أسبوعين يسير القمر مطمئناً، يكبر ويستدير إلى ان ينتصف الشهر — ويكون قد بلغ تمامه — فيتمكن الخنزير من طعنه ويزحزحه عن مكانه ويطرحه فى النهر فيأخذ فى النقصان والزوال حتى مستهل الشهر الثانى حيث تعود الحياة اليه رويداً رويدا

هذه هى أفكار قدماء المصريين عن دورة القمر وزيادته ونقصانه، وكان لهم أفكار أخرى لاتقل عن هذه غرابة

لاأقصد ان أقول شيئاً عن اعتقادهم فى الله، لأنهم كانوا يعبدون آلهة كثيرة وكان لكل اله من هذه الآلهة مذاهب ومعتقدات خاصة، وانى أتعبك لو حاولت أن أشرح لك كل هذه الديانات وما يتصل بها من المعتقدات المختلفة

وأهم مايسترعى الانتباه حقا هو اعتقاداتهم عن الحياة التى يحياها الناس فى السماء بعد انتهاء حياتهم على الأرض فانه لم يوجد شعب من الشعوب كان يصدق ويؤمن بخلود الأرواح بعد الموت مثل المصريين ، وفوق ذلك كانوا يعتقدون بأن كل ميت يبدأ حياة جديدة يسعد فيها أو يشقى تبعاً لما كان يفعله فى الدنيا من الخير أو الشر وعلى العموم كانت أفكارهم عن الدنيا السفلى مختلفة يصعب على العقل فهمها . وسأشرح لك أهم وأبسط هذه الافكار

كانوا يظنون أنه فى بدء تكوين الخليقة ، لما كانت الارض صغيرة ، كان يحكم مصرملك نبيل يدعى أوزوريس وكان محباً للرعية قضى حياته فى تعليمهم أنواع المعرفة المفيدة

وكان للملك أخ شرير حسود يدعى سيت يكرهه ويحقد عليه ففى ذات يوم دعا سيت أخاه لتناول العشاء معه ، وكان قد جمع بعض رفقائه ودبروا مكيدة ضد أوزوريس النبيل

وجلس الجميع ، وبينهم الملك ، يقصفون ويلهون ، حتى قام سيت وأتى بصندوق جميل ووعد بمنحه لمن يماثله طولا وحجماً ، وقام كل واحد منهم يقيس نفسه على الصندوق طمعا فى احرازه دون جدوى ولما جاء درر أوزوريس انتظر المتآمرون حتى وضع نفسه فى الصندوق — الذى صنع على قده — ثم أغلقوا بابه ورموا به الى النيل ، وحملته الامواج مسافات طويلة حتى رسا بجانب الشاطىء

وكان لأوزوريس زوجة مخلصة هى ايزيس ، خرجت تبحث عنه فى كل مكان حتى عثرت على الصدرق ، وجلست بجانبه تبكى زوجها المحبوب . ولكن فاجأها سيت وخطف الجثة من بين يديها وقطعها إربا إربا ونثرها فى الهواء . فزاد ذلك فى حزن ايزيس ، حتى هامت على وجهها تجمع ماتناثر من لحم زوجها وتدفنه حيث تجده

وكان لايزيس طفل يدعى هوروس ، فلما كبر وصار رجلا تبارز مع سيت وقتله انتقاما من والده . هنالك اجتمعت الآلهة وتبين لها من محاسبة الشقيقين ماكان أوزوريس عليه من الحق والهدى وما كان أخوه عليه من الغى والضلال ثم انهم رفعوا اوزوريس الى مصاف الآلهة وعينوه قاضيا يحاسب الناس بعد الموت .

واستنتج المصريون من هذه القصة الاعتقاد بالحياة بعد الموت فقالوا إذا كان أوزوريس قد بعث بعد الموت فان الذين يعبدونه يبعثون كذلك ويعيشون معه وتشابه هذه القصة ماترويه الكتب المقدسة عن موت المسيح وبعثه حيا بعد ذلك

وكانوا يعتقدون كذلك أنه إذا مات الانسان على الأرض تصعد روحه — بعد تحنيطه ودفنه — إلى أبواب قصر أوزوريس فى الدنيا الاخرى حيث تحاسب الارواح فى المحكمة الالهية ، وكان لابد للروح من معرفة أسماء الابواب السحرية لكى تدلها على المحكمة

وكان بالمحكمة ميزان كبير يقف بجانبه اله لتدوين نتائج حساب الأرواح . وكان يجلس فى جوانب المكان اثنان وأربعون مخلوقا مفزعا وهم الذين يعاقبون الخطاة الذين اقترفوا ذنوباً معينة ، فاذا دخلت روح الى المحكمة تتقدم من هؤلاء وتعترف لهم بأنها لم تقترف ذنباً من الذنوب المنصوص بعقاب من يقترفها . بعد ذلك يحضر قلب صاحب الروح ويوضع فى احدى كفتى الميزان ويوضع فى الكفة الاخرى ريشة وهى رمز الصدق فاذا رجحت كفة القلب كانت الروح خاطئة وجزاء صاحبها أن يقذف بقلبه بين براثن وحش عظيم يتكون نصفه من التمساح والنصف الاخر من فرس النهر وكان دائماً يربض خلف الميزان ليلتهم القلوب الخاطئة . أما ان رجحت كفة الصدق « الريشة » فان هوروس يقود الرجل الى حضرة أوزوريس حيث يسمح له بالدخول فى السماء

ولكن ماهذه السماء ؟ لقد كون المصريون عنها عدة أفكار متباينة منها ماهو ظريف وهو أن الارواح العادلة تصير نجوما تضيء العالم الى الأبد ومنها أن هذه الارواح ترافق الشمس فى سفينتها وتسير معها فى سياحتها الازلية

ولكن الفكرة التى كانوا يرجحونها هى مايتصورونه عن وجود بلد عجيب يدعى « حقل البردى » فى مكان قاص جهة الغرب ، حيث تنمو شجرة القمح وترتفع ثلاث ياردات ونصفا فى الهواء وتكون سنبلتها ياردة كاملة ، وتكتنف أرض الحقل القنوات الجميلة المفعمة بالاسماك ، حولها الغاب والبردى ، فاذا تركت الروح المحكمة سارت فى طرق غريبة محفوفة بالاخطار حتى تصل الى ذلك المكان الجميل حيث يقضى الميت . وهو حينئذ حى خالد . حياة أبدية فى سعادة لاتشوبها شائبة ، يزرع ويحصد أو يتريض فى قاربه أو يلعب فى المساء تحت شجرة الجميز

ومثل هذه السماء تجذب قلوب من تعودوا الاعمال العظيمة ومارسوا أشق الحرف وكابدوا الكثير من متاعب الحياة ؛ أما النبلاء فلم يستهوهم هذه السماء ، فهم لايقومون بأى عمل على الأرض فلماذا يكلفون أنفسهم ذلك فى السماء

وأعملوا الفكرة ليهتدوا الى طريقة يستطيعون بها ان يستصحبوا معهم عبيدهم الى السماء وأظنهم حاولوا ذلك فى بادىء الامر بقتل العبيد فى قبر سيدهم ، حتى يرافقوه الى السماء ويقوموا بأعماله كما كانوا يفعلون فى الارض

ولكن لما كان المصريون ميالين بطبعهم الى الرأفة فقد نفروا من هذه الطريقة الشنيعة ، ووجد الاشراف طريقة أخرى لتنفيذ فكرتهم وهو أنهم كانوا ينحتون من الاحجار وجوها تشبه أوجه العبيد ، وكانوا ينحتون مع كل عبد آلة للعمل فهذا على كتفه مجرفة وذاك فى يده صندوق . وهكذا

وكانوا يسمون هذه الوجوه « المجيبين » Answerers فاذا دفن أمير دفنوا معه جملة منها حتى إذا وصل السماء ودعى للقيام بعمل فى « حقل البردى » ناب عنه فى العمل « المجيبون » ولهذا نجد مع الأجسام المحنطة كثيراً من هذه الوجوه مكتوب عليها أسطر تخبر العبد عن العمل الذى سوف يقوم به فى الدنيا السفلى . واليك مثل منها

أيها المجيب إذا دعانى أحد لأعمل أى شىء فى السماء كأن أروى حقلا أو أحمل رملا ينبغى عليك ان تصيح « أنا هنا »

يالها من فكرة غريبة عن السماء ! والأغرب منها ظن الامراء بأنهم يستطيعون تجنب العمل والتعب فى الدنيا الأخرى بهذه الوجوه الطينية

ولكن يجب علينا ألا ننسى أن المصريين توصلوا كذلك لمعرفة جانب عظيم من الحقيقة التى قررتها الأديان التوحيدية ، فكانوا يعتقدون بأن أفعال الانسان فى الدنيا هى التى تقرر مصيره فى الآخرة وان الشرير وان نجا من العقاب فى الدنيا فالآلهة لاتتركه فى الدنيا الاخرى بلا حساب أو عقاب

ومن الانصاف ان نذكر ان هؤلاء القوم ، الذين دلوا على عبقريتهم فى أحوال كثيرة ، لم يكونوا إلا أطفالا بالنسبة للزمن والعلم ، وهم مثل الأطفال فى تكوينهم الافكار الخاطئة المضحكة عن الاشياء التى يجهلونها ولا يستطيعون فهمها ومثل الاطفال أيضا يمدون أيديهم فى الظلام يبحثون عن أبيهم المحبوب وهم يجهلون مكانه

فلا حاجة للغرابة اذا أخطأوا فى ذلك الزمن وضلوا الطريق

وانما يحق لنا أن نعجب كيف ان « الله » الذى هداهم الى تلك الافكار السامية وعلمهم تلك الفنون العظيمة ، قد ترك لنفسه شواهد تدل عليه حتى فى تلك الايام المنطوية

محتويات الكتاب

مطبعة المجلة الجديدة لصاحبها سلامة موسى بشارع الملكة نازلى بالقاهرة.
مستعدة لطبع جميع الكتب والمجلات أجود طبع

4772